لجنة نشر التراث الصوفى

اللُّمَع

لأبى نصر السَّرَّاج الطُّوسى

حققه ، وقدّم له ، وخرّج أحاديثه

الدكتور عبد الحليم محمود   طه عبد الباقى سرور

١٣٨٠ — ١٩٦٠

ملتزم الطبع والنشر

دار الكتب الحديثة بمصر

و

مكتبة المثنى ببغداد

بسم الله الرحمن الرحيم

لجنة نشر التراث الصوفى

باسمك اللهم وبحمدك ، ولا إله إلا أنت ، ولا إلهَ غيرك ، لا نستطيع أن نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

إليك سبحانك يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح ترفعه وتباركه ، وليس أطيب من كلم يشرق بحبك ، ويتعطر بذكرك ، ويدور حولَ رضاك وهداك .

وليس أزكى من عمل ، يقصد به وجهك ، ويستهدف به عزة هذه الأمة التى ارتضيتها لدينك ، واخترتها لقرآنك ، وباركتها بنبيك ، ولا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

ولهذا وضعنا المنهج العلمى ، لنشر الأصول الصوفية القديمة ، تلك الأصول التى أضاءت أفق الحياة الإسلامية فى أزهى عصورها ، وصنعت الأخلاق الإسلامية فى أنبل عهودها ، وصاغت لأمتنا فى وثبتها الأولى ، فلسفتها الروحية ، وآفاقها المثالية ، وخطوطها العريضة ، فى المعرفة والتربية ، ومناهجها فى السلوك والمجاهدة ، ومعارجها فى الحب والمناجاة ، وما إلى الحب والمناجاة ، من قربى إلى الله ، ووسيلة إلى هداه ورضاه .

وإننا لنستهدف من نشر هذه الأصول الصوفية ، أن تكون زاداً طيباً صالحاً مباركاً ، يتمثل فى نهضتنا عزماً أبيًّا ، وإيماناً قويًّا ، وخلقاً مثاليًّا ، وتوحيداً نقيًّا .

فإذا عاد إلى القلب الإسلامى ، نوره القرآنى ، وخلقه المحمدى ، وعزمه الإلهى ، عاد من جديد إلى الحياة ، ليقودها سعيدة مطمئنة إلى الله .

* * *

ولقد قدمنا من قبل لقرائنا ، كتاب « الرعاية لحقوق الله » للإمام الحارث المحاسبى ، وكتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » لتاج العلماء العارف الكلاباذى .

وإننا ليسعدنا اليوم أن نقدم لقرائنا فى العالمين العربى والإسلامى ، أكبر موسوعة صوفية عرفها التاريخ .

نقدم كتاب « اللمع » لأبى نصر السرّاج الطوسى ، أعظم مؤرخ صوفى ، فى تاريخنا قديمه وحديثه .

نقدمه محررا محققا ، بعد أن استكملنا النقص الكبير الذى كان فى طبعته الأوربية التى قام بها المستشرق « نيكلسون »[1] .

كما قمنا بضبط أعلامه ، وتخريج أحاديثه ، والتقديم له والتعقيب عليه .

* * *

وبعد ، فإننا نوجه الشكر خالصاً موفوراً للأساتذة الأصدقاء الذين سهموا بعلمهم فى إخراج هذا الكتاب .

---

(١) كان فى طبعة نيكلسون قسم مفقود ، ابتداء من (باب فى ذكر أبى الحسن النورى رحمه الله ، ثم أبواب : ذكر أبى حمزة الصوفى . ذكر جماعات المشايخ الذين رموهم بالكفر . ذكر أبى بكر على بن الحسن . ذكر محمد بن موسى الفرغانى . بيان ما قال الواسطى) وقد أثبتنا هذا القسم المفقود .

وبهذا ينشر كتاب اللمع كاملا لأول مرة فى التاريخ .

نشكر فضيلة الأستاذ العالم المحدّث السيد محمد الحافظ التيجانى ، فقد تولى فضيلته تخريج أحاديث « كتاب اللمع » بما عرف عنه من علم وأمانة ، فأضاف عملا صالحا نافعا مباركا بإذن الله .

ونشكر الأستاذ السيد محمد عيد الشافعى الذى بذل جهداً مشكوراً فى جمع المصادر الخاصة بتاريخ السراج الطوسى مؤلف « كتاب اللمع » .

ونشكر الصفوة المختارة من العلماء والأدباء ورجال الفكر ، الذين انهالت علينا كتبهم مشجعة ومقدرة لعملنا .

وإننا لنضرع إلى الله الكبير المتعال ، أن يتقبل عملنا ، وأن يباركه ، ويمن عليه بالتوفيق والسداد ، ويمدنا بعزم من لدنه لنواصل جهادنا فى نشر الأصول الصوفية الكبرى .

وما توفيقنا إلا بالله ، عليه توكلنا ، وإليه ما تخط أقلامنا ، وصلوات الله على المصطفى ، الذى أرسل هادياً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ؟

طه عبد الباقى سرور   دكتور عبد الحليم محمود

الجمعة { ٢٨ محرم عام ١٣٨٠ هـ
٢٢ يوليو عام ١٩٦٠ م }

كتاب اللمع

ومكانته من التصوف الاسلامي

مدرستان صوفيتان ، اعتصمتا بالكتاب والسنة ، واتخذتا من سيد المرسلين إماماً وقدوة ، وجعلتا من أشواق الحب الإلهي ، ومن إلهامات الروح القرآني ، ومن مثاليات الخلق المحمدي ، منهجا في المعرفة ، وطريقا في السلوك ، ومعراجا للوصول ، فقدمتا للعالمين ، أروع وأقوى روحانية إيمانية معتصمة مهتدية ، قدمتا التصوف الإسلامي مشرقا مبينا ، فيه هدى ، وفيه نور ، يرسم الطريق المستقيم المضيء ، طريق المخبتين المتبتلين ، الذين أحالوا السكون ، محاريب المناجاة والطاعات ، وجعلوا من مشاهده صفحات ناطقات ملهمات ، الطريق المضيء الصاعد إلى رضوان الله وقربه ، وأنسه وحبه ، وهداه وعلمه وفيضه .

مدرستان هما قلب التصوف ولسانه وبيانه ، وإليهما الفتوى والفيصل في مناهجه وقواعده ، وسلوكه ومعارجه .

مدرستان تميزتا بالمعرفة الكاملة الصادقة ، النابعة من الكتاب والسنة ، لم تتفرق بهما السبل ، ولم تجنح بهما الأذواق والأشواق ، فلما يعترفا أبدا ، بالسبحات الفلسفية ، والشطحات المترنحة ، والكلمات الغامضة ، التي تسربت إلى الأفق الصوفي ، وحاولت أن تنتسب إليه ، وأن تتستر بأشواقه وأذواقه .

أما المدرسة الأولى ، فهي مدرسة الإمام أبو القاسم الجنيد ببغداد ، وهي مدرسة اتخذت من المساجد منابر لدعوتها ، وجعلت من حلقاتها معاهد لتخريج الرجال . .

الرجال الذين تموج بهم كتب الأصول الصوفية ، كأعلام تضىء كلماتهم الطريق وترسمه وتحدده .

والمدرسة الثانيــة ، هى مدرسة الإمام أبو نصر السراج الطوسى بنيسابور ، وهى مدرسة اتخذت من الـكتب منابر لبيان دعوتها ، وشرح رسالتها ، ونشر علومها وأذواقها ومعارفها ومعارجها .

وجعلت من صفحات هذه الـكتب معاهد لتخريج الفحول من الرجال ، وخزائن خالدة ، تحفظ للأجيال ، هذا التراث المضىء العظيم .

وصاحب اللمع ، أبو نصر السراج الطوسى ، هو بحق ، أكبر المؤلفين الصوفيين وأستاذهم جميعا بلا استثناء .

اقتفى أثره الهجويرى فى كتابه « كشف المحجوب »[١] ، وتتلمذ عليه ، أبو عبد الرحمن السلمى ، صاحب الطبقات[٢] ، وعلى السلمى ، تتلمذ عبد الـكريم ابن هوازن أبو القاسم القشيرى ، صاحب الرسالة القشيرية[٣] .

فمؤلف اللمع إذن ، قد أنجبت مدرسته الأقلام الـكبيرة التى حفظت لنا ، ورسمت أمامنا ، مناهج الطريق وصانته وحمته من الدخيل والغريب .

كما احتضنت هذه المدرسة وحفظت لنا أيضاً ، تراث الجنيد وتلاميذه ورجاله .

فأصبحت مدرسة السراج وحدها عبر التاريخ الحجة التى يلوذ بها ، ويهتدى بنورها ، عباد الرحمن الذين استهدفوا وجهه سبحانه ، وصعدوا بقلوبهم و بعزماتهم إلى الأفق الأعلى ، مع الملأ الأعلى ، لا يستنكفون عن عبادة ربهم ، ولا يفترون عن ذكره وحمده .

---

(١) على بن عثمان الجلابى الهجويرى توفى عام ٤٦٥ هـ

(٢) توفى السلمى عام ٤١٢ هـ

(٣) توفى القشيرى عام ٤٦٥ هـ

قوتهم طاعة ، وحياتهم عبادة ، ومناجاتهم حب ، ووجودهم قرب ، وذوقهم علم ، و بساطهم أنس ، وخلقهم قرآن .

إنهم أمناء الله جل وعز فى أرضه ، وخزنة أسراره وعلمه ، وصفوته من خلقه ، كما يقول السراج الطوسى فى اللمع .

إنها مدرسة المعرفة الصوفية النقية ، حمل اللواء فيها السراج ، والقشيرى ، والهجويرى ، والسلمى ، والكلاباذى[١] .

المدرسة التى حاربت فى عنف وفى قسوة ، كل انحراف فلسفى ، أو شطح ذوق ، تسرب إلى جوهر التصوف الإسلامى .

يقول المستشرق « نيكلسون »[٢] :

« . . . ولهذا نجد أوائل المؤلفين فى التصوف يرددون الإنذار والتحذير من الوقوع فى وحدة الوجود ، و يكررون القول : بأن الله تعالى مخالف للحوادث مخالفة تامة ، وأن أى اتصال به يوصف بأنه اتحاد بذاته كفر وضلال » .

ولا جدال فى أن التصوف الإسلامى ، منذ فجره الأول ، قد ابتلى كما ابتليت المعارف الإسلامية كافة ، بالدخلاء الأدعياء سلوكا وقولا .

ولهذا نجد أئمة التصوف ، منذ القرن الثالث الهجرى ، وهم يحذرون و ينذرون ، وكان أكبر المنذرين وأسبقهم الإمام السراج الطوسى .

يقول السراج فى مقدمته لكتاب اللمع[٣] :

« . . . واعلم أن فى زمننا هذا قد كثر الخائضون فى علوم هذه الطائفة ، وقد كثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها ، والمجيبون عنها وعن

---

(١) صاحب التعرف لمذهب أهل التصوف

(٢) فى التصوف الإسلامى ص ١٠١

(٣) اللمع ص ١٩ طبع دار الكتب الحديثة

مسائلها ، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخرفه ، وكلاماً ألفه ، وليس بمستحسن منهم ذلك ؛ لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا فى هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ، ونطقوا بهذه الحكم ، إنما تكلموا بعد قطع العلائق ، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق ، والمبادرة والاشتياق إلى قطع كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرفة عين ، وقاموا بشرط العلم ، ثم عملوا به ، ثم تحققوا فى العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل » .

وإذن فالخائضون فى علوم التصوف ومسائله ، والمتشبهون الدخلاء المحجبون ، قد كثروا فى الأفق الصوفى ، منذ القرون الأولى فى الإسلام .

والسراج يحذر منهم ويشير إليهم ، ثم يضع قاعدة ذهبية للتصوف والصوفية .

إنهم علماء قاموا بشرط العلم ، ثم عملوا به ، ثم تحققوا فى العمل ، فجمعوا بذلك بين العلم ، والحقيقة والعمل .

ولهذا كان الصوفية عبر التاريخ ، نماذج للجلال الخلقى والروحى ، ونماذج للكمال التعبدى والإيمانى ، ونماذج عالية سامقة ، فى أفق العلم والمعرفة .

وكما يقول « ماسنيون » :

« إن رجال المعرفة الصوفية فى الإسلام ، كانوا دائما النماذج التى تقدم لنا الصورة الحية للمفكرين الكبار فى الإسلام » .

ويقول شاعر الإسلام « محمد إقبال » :

« إن الإسلام عند الصوفية يأخذ طابعا من الجمال والكمال ، والإنسانية العالية والأخوة العالمية ، لا تجده فى إسلام الفقهاء أو المتكلمين » .

* * *

وكتاب « اللمع » هو الكتاب الأم ، فى تاريخ التصوف الإسلامى ، وقد اجتمعت له خصائص ما نحسبها توافرت لغيره من كتب الحياة الروحية الإسلامية .

فهو أقدم مرجع صوفى إسلامى ، وهو فوق هذا أكبر هذه المراجع وأوثقها وأغزرها مادة ، وأنقاها جوهراً ولفظا .

ومن مادته الخصبة اقتبس كافة من أرخ للتصوف ، وعلى ضوء مناهجه وأبوابه وقواعده ، جرت الأقلام التى قدمت لنا عبر التاريخ علوم الطريق ورجاله .

وهو كتاب تاريخ ، ومدرسة علم ، وطريق ذوق ، وإشعاع يرشد السالكين ، ويعلم العلماء ، أو كما يقول « نيكلسون » : « هو مدرسة عليا لتخريج الفحول من المتصوفة الصادقين » .

وكتاب « اللمع » قد استهدف فى كل حرف فيه ، غاية قصد إليها ، وحرص عليها .

وهى رسم المبادىء الصوفية النقية ، تلك المبادىء التى تعبر عن روح القرآن ، وجوهر السنة .

المبادىء الخلقية والإيمانية التى تتلمذت لفضل الرسول صلوات الله وسلامه عليه وهديه .

المبادىء التى تحيط بكل شىء فى الحياة ، فتطلق فيه النور ، وتطلق فيه الروح ، وتطلق فيه الحب ، وتعمق فيه الأحساس المقدس ، الإحساس بالقرب من الله ، قرب ذوق ووجدان ، ومشاهدة ذوق ووجدان ٠٠ فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

المبادىء التى تتحقق فيها كلمات الله التى صورت الأمة الإسلامية بأنها خير أمة أخرجت للناس .

فإذا صور السراج فى « اللمع » تلك المبادىء فأحسن تصويرها ، وأبدع رسمها ، وأشاع الروح والحياة فى أفقها ، مدعما لها بالأدلة القرآنية والنبوية والعلمية والذوقية ، عمد إلى أدق وأنبل ما فى كتابه .

عمد إلى بيان كامل ، وحصر شامل ، للأخطاء التى وقع فيها السالكون للطريق ، إما عن سوء نية ، أو عن حسن قصد .

وهنا يتفوق السراج على نفسه ، فهو عالم نفسانى ، وهو حكيم ربانى ، وهو مبصر ببصيرة علوية يتسلل بها إلى خفايا الصدور ، وخفقات القلوب ، كما يتسلل إلى دقائق المعرفة ، ورقائق الذوق ، فيكشف عن أخطاء العابدين ، كما يكشف عن عقد الذاكرين ، وتلبيسات المحبين ، ووسوسة الزاهدين ، وهى أخطر عقبات الطريق ومزالقه .

فيجلو لنا بذلك كله وجه التصوف الإسلامى ، كما جاء به القرآن ، وكما صوره الرسول وهديه ، وكما عاشه رجاله وأعلامه ، وهم الصفوة من خلق الله ، والخيرة من عباده ، وخزائن العلم والمعرفة ، علم الشريعة ، وذوق الحقيقة ، وفيض العطاء الربانى ، الذى تتلمذ عليه من اصطفى الله من عباده .

* * *

ذلك هو « كتاب اللمع » أو بمعنى أدق ، ذلك بعض ما نومىء به ونشير ، ليدل على « اللمع » فكل تقديم « للمع » لا ينهض بحقه ، ولا يفى بقدره ، ولا يصور علمه وذوقه .

إنه جامعة لتخريج الفحول والأئمة الكبار ، جامعة لا يعرف قدرها ، إلا من تذوق منهجها وعاش فى صفحاتها ... وتلك رسالتك أيها القارىء الكريم .

التعريف بصاحب اللمع

أبو نصر عبد الله بن على السرّاج الطوسى ، الملقب : بطاووس الفقراء .
توفى سنة ٣٧٨ هـ .

يقول عنه صاحب النفحات :

« . . . هو عبد الله بن على بن محمد بن يحيى الصوفى الزاهد ، صاحب « كتاب اللمع » فى التصوف ، وقد تكون له مؤلفات أخرى لم تصل إلينا .

سمع جعفر الخلدى ، وأبا بكر محمد بن داود الدقى ، وأحمد بن محمد السايح » .

ويقول صاحب تذكرة الحفاظ :

« . . . أبو نصر السراج عبد الله بن على الطوسى الزاهد شيخ الصوفية ، وصاحب « كتاب اللمع » فى التصوف ، روى عنه جعفر الخلدى ، وأبى بكر محمد بن داود الدقى . . . قال « الذهبى » كان المنظور إليه فى ناحيته ، فى الفتوة ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلوم الشريعة » .

ويقول العلامة السخاوى :

« . . . كان على طريقة أهل السنة . قال : خرجت مع أبى عبد الله الروز بارى ، انلق ـ انبليا ـ الراهب بصور ، فنفذ بنا إلى ديره ، وقلنا له : ما الذى حبسك ها هنا ؟ قال : أسرتنى حلاوة قول الناس : يا راهب ، وتوفى فى رجب عام ٣٧٨ هـ[1] » .

---

(١) شذرات الذهب جـ ٣

ويقول العلامة المستشرق « نيكلسون » :

« . . . ليس لدينا إلا القليل عن تاريخ حياة السراج ، فإن مؤلفى التصوف القديم مروا عليه فى سكوت ، وأول ما ورد ذكره حسب علمى ، فى ملحق لتذكرة الأولياء ، كما عرض لذكره عرضا قصيرا ، أبو المحاسن الذهبى فى تاريخ الإسلام ، وأبو الفلاح فى شذرات الذهب ، ولغيره من المؤلفين فى سفينة الأولياء » .

ثم يقول : « ومن العجيب أن يغفل مؤلفو التصوف القديم شأنه ، فلم يؤلفوا عنه أسفاراً تحوى لنا تاريخه وتراجمه وأحواله ، مع أنه كان فريد عصره ، راسخ القدم فى علوم القوم ، وشيخا لمذهبهم فى الزهادة والتصوف .

وكم كنت أتمنى لو سبق وجودى إلى عصره الذهبى أو الذى يليه لأترسم خطاه ، وأتتبع آثاره وأخباره وأحواله ، فأميط اللثام عن مستور لو كشف لعبق عبيره ، وطيب شذا عرفه الأنام .

على أنى لو أتيح لى أن أكون أحد معاصريه المؤلفين ما أظننى واقفا عند هذا الحد من النعت والتعريف ، ولعمرى ما كنت إلا جاهدا نفسى لكشف النقاب عن حياة وأعمال هذا الإمام الجليل ، عسانى أكون قد افتتحت مدرسة عليا لتخريج الفحول من الزهاد المتصوفة من أهل الرقعة الفقراء المخلصين » .

وتروى لنا كتب السير الفارسية ، أن السرّاج كان يلقب بطاووس الفقراء ، كما تروى كما يقول الهجويرى فى « كشف المحجوب » : « أن أبا نصر السراج وفد فى رمضان إلى بغداد ، فأفرد له غرفة خاصة فى جامع « الشونيزية » وأعطى رئاسة الدراويش ، وأنه كان فى صلاة التراويح يختم القرآن خمس مرات ، وكان الخادم يحضر له رغيفا كل ليلة ، فيضعه فى غرفته ، وفى يوم العيد ، وكان السراج قد رحل ، وجد الخادم الثلاثين رغيفا دون أن تمس .

وتروى لنا قصة أخرى ، أنه خلال محادثاته فى التصوف أخذه الحال فقذف بنفسه فى نار موقدة ، وهو يدعو الله ، فلم تلفح له وجها ، ولم تحرق له ثوبا .

وكتاب اللمع كما يقول « نيكلسون » يعطى صورة ناطقة عن السراج الرحالة ، الذى تجول فى أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، وتنقل بين القاهرة و بغداد ودمشق والرملة ودمياط والبصرة وتبريز ونيسابور ، سالكا طريق القوم ، ناشراً لعلومهم ومعارفهم مجدا فى الاجتماع بأعلام التصوف الإسلامى فى عصره الذهبى ، ضاربا المثل الأعلى لمنهجهم بنفسه سلوكا وذوقا وفتوة .

ويقول أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقاته :

« . . . كان أبو نصر من أولاد الزهاد ، وكان المنظور إليه فى ناحية الفتوة ولسان القوم ، مع الاستظهار بعلم الشريعة ، وهو فقيه مشايخهم اليوم ، ومات أبوه ساجداً » .

توفى رضوان الله عليه فى رجب سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة هجرية « أكتوبر سنة ٩٨٨ م » .

كتاب اللُّمَع

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

كتب إلينا أبو القاسم عليّ بن الإمام أبي الفَرَج عبد الرحمن بن عليّ بن محمد ابن الجَوْزى ، وأبو . . . . إسماعيل بن على بن باتكين الجَوْهرى ، وأبو عبد الله محمد ابن عبد الواحد بن أحمد بن المتوكّل على الله ، وأبو المنجّى عبد الله بن عمر بن عليّ ابن زيد بن الليثى ، وغيرهم من بغداد . وكتبت إلينا أمُّ الفضل كريمة ابنة عبد الوهاب بن عليّ بن الخضر القُرَشِيَّة من دمشق . كلُّهم عن أبي الوَقْت عبد الأوّل بن عيسى بن شُعَيب بن إسحاق السّجزىّ الصوفىّ المروىّ الماليني ، قال : أنبأنا أبو نصر أحمد بن أبى نصر الكوفانى قراءةً عليه فى شهور سنة خمس وستّين وأربعمائة ، قال : أنبأنا أبو محمد الحسن بن محمد الخَنبُوشانى قراءة عليه ، قال : أنبأنا أبو نصر عبد الله بن عليّ الطوسى السرّاج ، قال :

الحمد لله الذى خلق الخلق بقدرته ، ودلّهم على معرفته بآثار صنعته وشواهد ربوبيته ، واختار منهم صفوةً من عباده وخِيرَةً من خلقه ، خصّ منهم من شاء بما شاء كيف شاء ، وقسم لهم من العلم به والفهم عنه بما قسم ، وحكم لهم فى ذلك بما حكم ، وجعلهم، فيما منح لهم من الهداية والتوفيق، متفاوتين كتفاوتهم فى الأخلاق والأرزاق والآجال والأعمال ، فلا علمٌ معلوم ولا شيء مفهوم إلا وذلك موجود فى كتاب الله عزّ وجلّ ، أو مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو فيما فُتح على قلوب أولياء الله ، ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حي عن بيِّنة ، وإن الله لسميع عليم .

والصلاة على المقدّم المعظّم المكرّم من أنبيائه شمس الأولياء وقمر الأصفياء : محمد عبده ورسوله وعلى آله وسلم كثيراً .

أمّا بعد : فإنى قد استخرتُ الله تعالى وجمعت أبواباً فى معنى ما ذهب إليه أهل التصوّف ، وتكلّم مشايخهم المتقدّمون فى معانى علومهم وعُمْدة أُصُولهم وأساس مذهبهم وأخبارهم وأشعارهم ومسائلهم وأجوبتهم ومقاماتهم وأحوالهم ، وما انفردوا بها من الإشارات اللطيفة والعبارات الفصيحة ، والألفاظ المشكلة الصحيحة على أصولهم ، وحقائقهم ومواجيدهم وفصولهم .

وذكرتُ من كل فصل طَرَفاً ، ومن كل أصل طُرَفاً ونُتفاً ، ومن كلّ باب لُمَعاً ، على حسب ما سنح به الحالُ ، ومكّن منه الوقتُ ، وجاد به الحقُّ جلّ ذكره ؛ مقتدياً بالأُسْوَة والقُدْوَة والبيان والحُجّة .

فينظر الناظر فيه عند تيقظ وتنبّه وحضور قلب وفراغ نفس ، بحسن التوقّف والتفكّر والتأمّل والتدبُّر ، بخلوص النيّة وطهارة القلب وصحة القصد ، متقرّباً إلى الله تعالى ذكره ، وشاكراً له على ما منحه من تسديده وتوفيقه وهدايته إلى موالاة هذه العصابة[1] ، ومناوأة من بسط لسانه فيها بالوقيعة فيهم والإنكار عليهم وعلى سلفهم الماضين ، رحمة الله ورضوانه عليهم أجمعين ؛ لأنهم العصابة القليل عَدَدُها ، العظيم عند الله قَدْرُها وخَطَرُها .

وينبغى للعاقل فى عصرنا هذا أن يعرف شيئاً من أصول هذه العصابة وقصودهم[2] ، وطريقة أهل الصحة والفضل منهم ، حتى يميّز بينهم وبين المتشبّهين بهم[3] ، والمتلبسين بلبسهم ، والمتسمّين باسمهم . حتى لا يغلط ولا يأثم ؛ لأن هذه

---

(١) يقصد أهل التصوف .

(٢) جمع قصد بمعنى الاتجاهات والنوايا

(٣) أن ادعاء التصوف قديم وها هو ذا المؤلف المتوفى فى القرن الرابع الهجرى يحذر من المهرجين باسم التصوف ، أما فى عصرنا الحاضر فقد أصبح ادعاء التصوف أمراً عادياً ولعلنا بنشر هذا الكتاب نساهم فى إعطاء الفكرة الصحيحة عنه حتى لايراه الناس طبلا وزمراً وبيارق وأساطير وجزى الله المؤلف خير الجزاء .

الصلاة أعنى الصوفية ، هم أمناء الله ، جل وعز، فى أرضه، وخزنةُ أسراره وعِلمه، وصفوتُه من خلقه ؛ فهم عباده المُخلصون ، وأولياؤه المتقون ، وأحباؤه الصادقون الصالحون ؛ منهم الأخيار والسابقون ، والأبرار والمقرّبون ، والبدلاء والصديقون ؛ هم الذين أحيا الله بمعرفته قلوبهم ، (وزين) بخدمته جوارحهم ، وألهج بذكره ألسنتهم ، وطهر بمراقبته أسرارهم ؛ سبق لهم منه الحسنى بحسن الرعاية ودوام العناية، فتوجهم بتاج الولاية ، وألبسهم حُلَلَ الهداية ، وأقبل بقلوبهم عليه تعطفاً ، وجمعهم بين يديه تلطفاً ، فاستغنوا به عما سواه ، وآثروه على ما دونه ، وانقطعوا إليه، وتوكلوا عليه ، وعكفوا ببابه ، ورضوا بقضائه ، وصبروا على بلائه ، وفارقوا فيه الأوطان ، وهجروا له الإخوان ، وتركوا من أجله الأنساب ، وقطعوا فيه العلائق، وهربوا من الخلائق، مستأنسين به مستوحشين مما سواه: (ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)[1] الآية :(فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ)[2] الآية : (قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)[3] الآية .

واعلم أنّ فى زماننا هذا قد كثر الخائضون فى علوم هذه الطائفة ، وقد كثر أيضاً المتشبهون بأهل التصوف والمشيرون إليها والمجيبون عنها وعن مسائلها ، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخرفه ، وكلاماً ألفه ، وليس بمستحسَن منهم ذلك ، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا فى هذه المسائل وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهذه الحِكَم ، إنما تكلموا بعد قطع العلائق ، وإماتة النفوس بالمجاهدات والرياضات والمنازلات والوجد والاحتراق ، والمبادرة والاشتياق إلى قطع

(١) الجمعة : ٤

(٢) تكملة الآية : ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير . فاطر : ٣٢ .

(٣) تكملة الآية : آلله خير أما يشركون (النمل : ٥٩) .

كل علاقة قطعتهم عن الله عز وجل طرْفة عين ، وقاموا بشرط العلم ، ثم عمــلوا به، ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل .

قال أبو نصر رحمه الله : وقد حذفتُ الأسانيد عن كثيرٍ مما ذكرت فى هـذا الـكتاب ، واقتصرت على متون الأخبار والحـكايات والآثار للاختصار ، فما أصَبْتُ من ذلك فبعناية الله عز وجل ، والحمدُ لله على ذلك ، وما أخطأتُ فى ذلك ووقـع فيه شيء من الزيادة والنقصان فهو لازم لى ، وأنا أستغفر الله من ذلك ، وإنما ذكرتُ فى كتابى هذا أجوبة هؤلاء المتقدمين وألفاظهم لأن لى فيها غُنْية عن تكلفى كتـكلف المتأخِّرين فى زماننا هـذا إذا تـكلموا فى هذه المعانى بكلام أو أجابوا عنهـا بجواب أو أضافوا ذلك إلى أنفسهم وهم متعرون عن حقائقهم وأحوالهم .

وكل من أخذ من كلام المتقدّمين الذين وصفناهم معنًى من معانيهم التى هى أحوالهم ووجدهم ومستنبطاتهم ، وحلاَّها من عنده بحلية غير ذلك ، أو كساها عبارة أُخرَى ، أو أضافها إلى نفسه حتى يشار إليه بذلك ، أو يطلب بذلك جاهًا عند العامّة ، أو يريد أن يصرف بذلك وجوه الناس إليه لجرِّ منفعةٍ أو لدفع مضرّةٍ ؛ فإنه عزَّ وجلّ خصْمُهُ فى ذلك وهو حسيبه ، لأنّه قد ترك الأمانة وعمل بالخيانة ، وهذه أعظم [وأكبر من] الخيانة التى فى أسباب الدنيا : (وأنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ)[١] ، وبالله التوفيق .

---

(١) من الآية ٥٢ من سورة يوسف .

باب البيان عن علم التصوف ، ومذهب الصوفية ، ومنزلتهم من أولى العلم القائمين بالقسط

قال الشيخ أبو نصر : سألنى سائلٌ عن البيان عن علم التصوّف ، ومذهب الصوفية ، وزعم أن الناس اختلفوا فى ذلك : فمنهم من يغلو فى تفضيله ورفعه فوق مرتبته ، ومنهم من يُخرجه عن حدّ المعقول والتحصيل ، ومنهم من يرى أن ذلك ضربٌ من اللهو واللعب وقلّة المبالاة بالجهل ، ومنهم من ينسب ذلك إلى التقوى والتقشّف ولبْس الصوف والتكلب فى تنوق[1] الكلام واللباس وغير ذلك ، ومنهم من يُسرف فى الطعن وقُبْح المقال فيهم حتى ينسبهم إلى الزندقة والضلاله ؛ فسألنى أن أشرح له من ذلك ماصحّ عندى من أُصول مذهبهم المؤيّد المنوط بمتابعة كتاب الله عز وجل ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين ، والتأدّب بآداب عبــاد الله الصالحين ، وأُقيّدَ ذلك بالكتاب والأثَر بالحُجة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ويُعْرَف الجِدُّ من الهزل ، والصحيح من السقيم ، ويرتب كلّ نوع منه فى موضعه إذ كان ذلك علماً من علوم الدين ، فأقولُ وبالله التوفيق .

إن الله تبارك وتعالى ، أحكم أساسَ الدين ، وأزال الشبهة عن قلوب المؤمنين بما أمرهم به من الاعتصام بكتابه ، والتمسك بما وصل إليهم من خطابه ، إذ يقول جلّ جلاله : « واْعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا[2] » الآية وقال عز وجل : «وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِ وَالتَّقْوَى » ثم ذكر الله تعالى أفضل المؤمنين درجةً وأعلام فى

---

(١) ترتيبه وتنسيقه

(٢) تكملة الآية : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم ، منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ، آل عمران : ١٠٥

الدين رتبة فذكرهم بعد ملائكته وشهد على شهادتهم له بالوحدانية بعد ما بدأ بنفسه وثنى بملائكته فقال عز وجل : «شهد اللهُ أنه لاَ إلهَ إلا هُو والملائكةُ وَأُولوا العِلمِ قائمًا بالقسطِ [1]» وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «العلماء وَرَثة الأنبياء» .

وعندى ، والله أعلم ، أن أولى العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء ، هم المعتصمون بكتاب الله تعالى ، المجتهدون فى متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، المقتدون بالصحابة والتابعين ، السالكون سبيل أوليائه المتقين وعباده الصالحين ، هم ثلاثة أصناف : أصحاب الحديث ، والفقهاء ، والصوفية ، فهؤلاء هم الأصناف الثلاثة من أولى العلم القائمين بالقسط الذين هم ورثة الأنبياء ، وكذلك أنواع العلوم كثيرة : فعلم الدين من ذلك ثلاثة علوم : علم القرآن ، وعلم السُّنن والبيان ، وعلم حقائق الإيمان ، وهى العلوم المتداولة بين هؤلاء الأصناف الثلاثة وجملة علوم الدين لا تخرج عن ثلاث : آيات من كتاب الله عز وجل ، أو خَبَر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو حِكمة مستنبطة خطرت على قلب ولى من أولياء الله تعالى .

وأصل ذلك حديث الإيمان حيث سأل جبريل عليه السلام النبيّ صلى الله عليه وسلم عن أصول ثلاثة : عن الإسلام والإيمان ، والإحسان الظاهر والباطن ، والحقيقة ، فالإسلام ظاهر ، والايمان ظاهر و باطن ، والإحسان حقيقة الظاهر والباطن ، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم : الأحسان ، أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وصدقه على ذلك جبريل ، والعلم مقرون بالعمل ، والعمل مقرون بالإخلاص ، والإخلاص أن يريد العبد بعلمه وعمله وَجْهَ الله تعالى ؛ وهؤلاء الأصناف الثلاثة فى العلم والعمل متفاوتون ، وفى مقاصدهم ودرجاتهم متفاضلون ، وقد ذكر الله تعالى تفاضلهم ودرجاتهم فقال عز وجل : « وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ [2] » ، وقال : « ولِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا [3] » . وقال : « انظُرْ كيفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ

(١) سورة آل عمران ١ : ١٨

(٢) سورة المجادلة : ١١

(٣) الأحقاف : ١٩

عَلَى بَعْضٍ[١] » ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الناس أكْفاء متساوون كأسْنان ٢
المشط[٢] ، لافضْل لأحد على أحد إلا بالعلم والتُّقَى ».

فكل من أشكل عليه أصلٌ من أصول الدين وفروعه وحقوقه وحقائقه وحدوده وأحكامه ظاهراً و باطناً فلا بد له من الرجوع إلى هؤلاء الأصناف الثلاثة : أصحاب الحديث ، والفقهاء ، والصوفية ؛ وكل صنف من هؤلاء مترسم بنوع من العلم والعمل والحقيقة والحال ، ولكل صنف منهم فى معناه علم ، وعمل ، ومقام ومقال ، وفهم ، ومكان ، وفقه ، وبيان عَلِمَهُ من عَلِمَهُ وجَهِلَهُ من جَهِلَهُ ، ولا يبلغ أحد إلى كمال يحوى جميع العلوم والأعمال والأحوال ، وكلٌّ واحد فمقامُهُ حيث وقفه الله تعالى ومحله حيث حبسه الله عز وجل ، وأنا أبيّن لك من ذلك إن شاء الله تعالى على حسب الطاقة أن كل صنف من هؤلاء بأى نوع من العلم والعمل ترسموا وبأى حال تفاضلوا ، وأيُّهم أعلى طبقة بما لايدفعه عقلك ويحيط به فهمك إن شاء الله تعالى .

(١) الإسراء : ٢١

باب فى نعت طبقات أصحاب الحديث ، ورسمهم فى النقل

ومعرفة الحديث ، وتخصيصهم بعلمه

قال الشيخ رحمه الله : فأما أصحاب الحديث فإنهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : هـــذا أساس الدين لأن الله تعالى يقول : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » فلمّا خوطبوا بذلك جوّلوا[1] البلاد ، وطلبوا رُوَاة الحديث ، فلزموهم حتى نقلوا عنهم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمعوا ما رُوى عن الصحابة والتابعين ، وضبطوا ماوصل إليهم من سِيَرهم وآثارهم ومذاهبهم واختلافهم فى أحكامهم وأقوالهم وأفعالهم وأخلاقهم وأحوالهم ، وصححوا رواياتهم بسماع الأذن وحفظ القلب والضبط من أُصول الثقات عن الثقات العدول عن العدول ، فأتقنوا ذلك ، وعرفوا أماكن الرُّواة فى النقل والضبط ، ودوّنوا أسماءهم وكُناهم وموالدهم ووفاتهم ، وأرخوا ذلك حتى عرفوا أن كل رجل من هؤلاء كم من حديث رواه ؟ وعمّن رواه ؟ وعمن نقل إليه ؟ ومن أخطأ منهم فى النقل ؟ ومن غلط منهم فى زيادة حرف أو نقصان لفظة ، ومن تعمد منهم فى ذلك ، ومن سومح له بغلطة أو هفوة ، حتى عرفوا أسماء المتهمين منهم بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرفوا من تصح عنه الرواية ومن لا تصح ، ومن انفرد منهم بحديث لا يرويه غيره ، أو انفرد بلفظة ليست عند غيره ، فحفظوا أن كل حديث من ذلك كم من نفس رواه ؟ وما العلة فى ناقله ؟ حتى جمعوا الأبواب ، و بوّبوا السنن ، وميزوا ما يدخل فى الصحيح وما يختلف فى صحته ، وما كان فى روايته رجل ضعيف ، ووقفوا على رواية المقلين والمُكثرين ، وفهموا أحاديث أئمة الأمصار ، وطبقات الرُّواة : التابع من المتبوع ، والكبير من الصغير ،

---

(١) طافوا بها

وأحاط عِلْمهم بعلل اختلاف الرواة ، وزياداتهم ونقصانهم ، وأما كنهم ، في رواية السنن والآثار ، إذ كان ذلك أساس الدين .

وهم في ذلك متفاضلون حتى يستحق أحدهم بزيادة علمه وإتقانه وحفظه قبول الشهادة على العلماء في العدل والتجريح ، والردّ والقبول ؛ وتكون شهادته مقبولة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال وفعل وأمر ونَهى وندب ودعا ؛ قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أي عدولا « لِتَكُونُوا شُهَدَاء على الناس ويكون الرسولُ عليكم شهيداً »[1]. يقال : إنهم أصحاب الحديث : يشهدون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى الصحابة والتابعين فيما قالوا وفعلوا ويكون الرسولُ عليكم شهيداً فيما شهدوا عليه من أفعاله وأقواله وأحواله وأخلاقه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعدَه من النار ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: « نضر الله وجه أمرىء سمع منى حديثاً فبلّغه » الحديث . يقال : إنه لا يكون ٣
واحد من أصحاب الحديث إلا وفي وجهه نضرة لموضع دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولأصحاب الحديث في معاني علومهم ورسومهم مصنفات ولهم أئمة مشهورون [كل منهم] قد أجمع أهل عصره على إمامته ، لفضل علمه وزيادة عقله وفهمه ودينه وأمانته ؛ وشرح ذلك يطول ، وفيما ذكرت كفايةٌ لمن علم وبالله التوفيق .

(١) سورة البقرة ١٤٣

باب ذكر طبقات الفقهاء

وتخصيصهم بما ترسموا به من أنواع العلوم

قال الشيخ أبو نصر رحمه الله : وأما طبقات الفقهاء فإنهم فضلوا على أصحاب الحديث [بقبول علوم أصحاب الحديث] والاتفاق معهم فى معانى علومهم ورسومهم .

ثم خُصّوا بالفهم والاستنباط فى فقه الحديث والتعمق بدقيق النظر فى ترتيب الأحكام وحدود الدين وأصول الشرع ، فبينوا ذلك ، وميزوا الناسخ من المنسوخ ، والأصول من الفروع ، والخصوص من العموم ، بالكتاب والسنة والإجماع والقياس .

و بينوا للخلق فى أحكام دينهم من القرآن والأثر ما نسخ حكمه و بقى كتابته ، وما نسخ كتابته و بقى حكمه ؛ وما كان لفظه عامًّا والمراد به خاص ، أو كان لفظه خاصًّا والمراد به عامّ ، أو كان خطاب جماعة والمراد به واحد ، أو خطاب واحد والمراد به جماعةٌ ، وتكلموا بالاحتجاجات العقلية على المخالفين ، واستدلوا بالبراهين البينة على أهل الضلالة نصرة للدين، وتمسكوا بنص الكتاب ، أو نص السنة ، أو قياس على النص ، أو إجماع الأمة ، وناظروا من خالفهم برسم النظر ، وجادلوا من جادلهم بأدب الجدل ، وعارضوا خصمهم بالمعارضات ، واعترضوا عليهم برد الاعتراضات واطراد العلل فى المعلومات ، فوضعوا كل شىء فى مواضعه ، ورتبوا كل حدّ فى مراتبه ، وفرقوا بين المقايسة والمشاكلة والمجانسة والمقارنة، وميزوا فى الأوامر والنواهى ما كان منه حتما وما كان منه ندباً ، وما كان منه ترغيباً وترهيباً ، وما كان [منه] محثوثًا عليه ومدعوًّا إليه ، فبينوا المشكل ، وحلوا العُقد وأوضحوا الطرق ، وأزالوا الشبهات ، وفرعوا على الأصول ، وشرحوا المُجْمَل ، و بسطوا المجموع ، وأخذوا

حدود الدين بالاحتياط ، حتى لايقلد العالم عالماً ، ولا الجاهل جاهلا ، ولا الخاص خاصاً ، ولا العامّ عامًّا فى ظاهر الأحكام وحدود الشريعة .

بهم يحفظ على المسلمين حدودهم ، وقد ذكرهم الله تعالى فى كتابه فقال عز وجل : « فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كلِّ فِرْقَةٍ مِنهمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فى الدِّين » الآية ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « من يُرِد الله به خيراً يفقهه فى الدين ». ٤

وللفقهاء فى معانى علومهم ورسومهم أيضا مصنفات ، ولهم أئمة مشهورون ، قد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم ، لزيادة علمهم وفهمهم ودينهم وأمانتهم ، وشرح ذلك يطول ، والعاقل يستدل بالقليل على الكثير ، وبالله التوفيق .

باب ذكر الصوفية ، وطبقاتهم

وما ترسموا به من العلم والعمل ، وما خصوا به من الفضائل، وحسن الشمائل

قال الشيخ أبو نصر رحمه الله : ثم إن طبقات الصوفية أيضاً اتفقوا مع الفقهاء وأصحاب الحديث فى معتقداتهم وقبلوا علومهم ، ولم يخالفوهم فى معانيهم ورسومهم ، إذا كان ذلك مجانباً للبِدَع واتباع الهوى ، ومنوطاً بالأسوة والاقتداء ، وشاركوهم بالقبول والموافقة فى جميع علومهم .

ومن لم يبلغ من الصوفية مراتب الفقهاء وأصحاب الحديث فى الدراية والفهم ، ولم يُحطْ بما أحاطوا به علماً فإنهم راجعون إليهم فى الوقت الذى يُشكل عليهم حكمٌ من الأحكام الشرعية أو حدٌّ من حدود الدين ، فإذا اجتمعوا فهم فى جملتهم فيما اجتمعوا عليه ، فإذا اختلفوا فاستحباب الصوفية فى مذهبهم الأخذُ بالأحسن والأولى والأتم احتياطاً للدين وتعظيما لما أمر الله به عباده واجتناباً لما نهاهم الله عنه .

وليس من مذهبهم النزول على الرُخَص وطلب التأويلات [والميل إلى] الترفُّه والسَّعات وركوب الشبهات ، لأن ذلك تهاونٌ بالدين ، [وتخلفٌ عن الاحتياط ؛ وإنما مذهبهم التمسك بالأولى والأتم فى أمر الدين] ؛ فهذا الذى عرفنا من مذاهب الصوفيـة ورسومهم فى استعمال العلوم الظاهرة المبذولة المتداولة بين طبقات الفقهاء وأصحاب الحديث .

ثم إنهم [من] بعد ذلك ارتقوا إلى درجات عالية ، وتعلقوا بأحوال شريفـة ومنازل رفيعة من أنواع العبادات وحقائق الطاعات والأخلاق الجميلة ، ولهم فى معانى ذلك تخصيص لغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب الحديث وشرح ذلك يطول ، غير أنى أبين لك من كل شىء طَرَفاً حتى تستدل بما أذكرُهُ على ما لا أذكره إن شاء الله تعالى .

باب ذكر تخصيص الصوفية بالمعانى التى قد ترسموا بها

من الآداب والأحوال والعلوم التى تفرّدوا بها من جملة العلماء

قال الشيخ أبو نصر رحمه الله : فأول شىء من التخصيصات للصوفية وما تفردوا بها عن جملة هؤلاء الذين ذكرتهم من بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم : تَرْكُ ما لا يعنيهم ، وقَطْعُ كل علاقة تحول بينهم و بين مطلوبهم ومقصودهم ؛ إذ ليس لهم مطلوب ولا مقصود غير الله تبارك تعالى ؛ ثم لهم آداب وأحوال شتى ، فمن ذلك:

القناعة بقليل الدنيا عن كثيرها ، والاكتفاء بالقوت الذى لا بُدَّ منه ، والاختصار على ما لا بدّ منه من مهنة الدنيا : من الملبوس ، والمفروش ، والمأكول ، وغير ذلك ؛ واختيار الفقر على الغنى اختياراً ، ومعانقة القلّة ، ومجانبة الكثيرة ، و إيثار الجوع على الشبع ، والقليل على الكثير ، وترك العلوّ والترفع ، و بذل الجاه ، والشفقة على الخلق ، والتواضع للصغير والكبير ، والإيثار فى وقت الحاجة إليه ، وأن لا يبالى من أكَلَ[1] الدنيا . وحُسْن[2] الظن بالله ، والإخلاص فى المسابقة إلى الطاعات ، والمسارعة إلى جميع الخيرات ، والتوجه إلى الله تعالى ، والانقطاع إليه ، والعكوف على بلائه والرضا عن قضائه ، والصبر على دوام المجاهدة ومخالفة الهوى ، ومجانبة حظوظ النفس ، والمخالفة لها ؛ إذ وصفها الله تعالى بأنها أمارةَ بالسوء ، والنظر إليها بأنها أعدَى عدوك التى بين جنبَيْك ، كما رُوى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) لايبالى بمن يستمتع بها من المترفين أو من يجرى وراءها من أصحاب الثراء ، أى لايغبطه ولا يحسده ولاينظر إليه نظره تقدير

(٢) أى ومن آدابهم حسن الظن إلخ .

فصل آخر

ثم إن من آدابهم وشمائلهم أيضاً مراعاة الأسرار ، ومراقبة الملك الجبار ، ومداومة المحافظة على القلوب بنفى الخواطر المذمومة ، ومساكنة الأفكار الشاغلة التى لا يعلمها غير الله عز وجل ، حتى يعبدوا الله تعالى بقلوب حاضرة ، وهموم جامعة ، ونيات صادقة ، وقصود خالصة ؛ لأن الله عز وجل ، لا يقبل من عباده من أعمالهم إلا ما كان لوجهه خالصاً قال الله عز وجل : (أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ)(١).

[فصل آخر]

ومن آدابهم وشمائلهم وتخصيصهم أيضاً الاعتراض لسلوك سُبل أوليائه ، والنزول فى منازل أصفيائه ، ومباشرة حقيقة الحقوق ببذل الروح وتلف النفس ، واختيار الموت على الحياة ، وإيثار الذل على العز واستحباب الشدة على الرخاء ؛ طمعاً فى الوصول إلى المراد ، وأن لا يريد إلا ما يريد(٢).

وهذا فى أول بادٍ من بوادى الحقائق وحقيقة الحقوق ، أما ترى أن النبى صلى الله عليه وسلم ، حيث سأل حارثة [فقال] : «لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ [بأى شىء أجابه] فقال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزاً ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة : كيف يتزاورون ، وإلى أهل النار فى النار : كيف يتعاوون . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : عرفت فالزم» . أو كما روى فى الحديث . والله أعلم

---

(١) الزمر : ٣

(٢) أى ما يريده الله .

باب فى تخصيص الصوفية من طبقات أهل العلم

فى معان أخر من العلم

قال الشيخ [أبو النصر] رحمه الله : وللصوفية أيضاً تخصيص من طبقات أهل العلم باستعمال آيات من كتاب الله تعالى متلوة ، وأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مروية ، ما نسختها آية ، وما رفع حكمها خبر ولا أثر ، يدعو ذلك إلى مكارم الأخلاق ، و يبحث عن معالى الأحوال وفضائل الأعمال ، وينبىء عن مقامات عالية فى الدين ، ومنازل رفيعة خص بذلك طائفة من المؤمنين ، وتعلق بذلك جماعة من الصحابة والتابعين ، وذلك آداب من آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وخلق من أخلاقه إذ يقول صلى الله عليه وسلم : إن الله أدبنى فأحسن أدبى ، و إذ يقول الله عز وجل :(و إنك لعلى خلق عظيم) وذلك موجود فى دواوين العلماء والفقهاء . وليس ٦
لهم فى ذلك تفقه واستنباط كتفقههم فى سائر العلوم ، وليس لغير الصوفية من أولى العلم القائمين بالقسط فى ذلك نصيب غير الإقرار به والإيمان بأنه حق ، وذلك مثل حقائق التوبة وصفاتها ، ودرجات التائبين وحقائقهم ، ودقائق الورع وأحوال الورعين ، وطبقات المتوكلين ، ومقامات الراضين ، ودرجات الصابرين ، وكذلك فى باب الخشية والخضوع ، والمحبه والخوف ، والرجاء والشوق والمشاهدة ، [والإنابة] والطمأنينة : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم)(١) . واليقين والقناعة . ومدة أحوال أكثر من أن يحصى عددها ؛ ولكل حال من ذلك أهل وطبقات ، ولهم فى ذلك حقائق [ومشاهدات ، وأحوال ومراقبات ، وأسرار واجتهادات ، ومقامات ودرجات متباينات] ، وإرادات متفاوتة ، وتفاضل فى قوة الإرادة ، واعتراض الفترة ، وغلبات الوجد ؛ ولكل واحد من ذلك حد ومقام ، وعلم وبيان ، على مقدار ما قسم له من الله عز وجل .

ومن أعظم النعم التى اختصوا بها دوام المراقبة وهى التحقق بمقام الإحسان .

(١) الأنفال : ٢

فصـــــل

وللصوفية أيضاً تخصيص فى معرفة الحرص والأمل ودقائقهما ، ومعرفة النفس وأماراتها وخواطرها ، ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفى، وكيف الخلاص من ذلك ، وكيف وجه الإنابة إلى الله عز وجل ، وصدق الالتجاء ، ودوام الافتقار والتسليم والتفويض ، والتبرى من الحول والقوة .

فصل آخر

وللصوفية أيضاً مستنبطات فى علوم مشكلة على فهوم الفقهاء والعلماء ، لأن ذلك لطائف مودعة فى إشارات لهم تخفى فى العبارة من دقتها ولطافتها ؛ وذلك فى معنى العوارض والعوائق والعلائق والحجب وخبايا السر ومقامات الإخلاص ، وأحوال المعارف وحقائق العبودية ، ومحو الكون بالأزل ، وتلاشى المحدث إذا قورن بالقديم وفناء رؤية الأعواض وبقاء رؤية المعطى [بفناء رؤية العطاء] ، وعبور الأحوال والمقامات ، وجمع المتفرقات ، وفناء رؤية القصد ببقاء رؤية المقصود [والإعراض عن عن رؤية الأعواض] ، وترك الاعتراض ، والهجوم على سلوك سبل منطمسة ، وعبور مفاوز مهلكة .

فالصوفية مخصوصون من أولى العلم القائمين بالقسط بحلّ هذه العُقد ، والوقوف على المُشْكل من ذلك ، والممارسة لها بالمنازلة والمباشرة ، والهجوم عليها ببذل المُهَج ، حتى يُخبروا عن طعمها وذوقها ونقصانها وزيادتها ، ويطالبوا من يدّعى حالا منها بدلائلها ، ويتكلموا فى صحيحها وسقيمها ، وهذا أكثرُ من أن يتهيّأ لأحدٍ أن يذكر قليلَهُ ؛ إذ لا سبيل إلى كثيره .

وجميع ذلك موجود عِلْمُهُ فى كتاب الله عزّ وجلّ ، وفى أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم مفهوم عند أهله ولا ينكره العلماء إذا استبحثوا عن ذلك .

وإنما أنكر علم التصوف جماعةٌ من المترسمين بعلم الظاهر ، لأنهم لم يعرفوا من كتاب الله تعالى ، ولا من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا ما كان فى الأحكام الظاهرة وما يصلح للاحتجاج على المخالفين ، والناس فى زماننا هذا إلى مثل ذلك أميَلُ لأنه أقرَبُ إلى طلب الرياسة واتخاذ الجاه عند العامة والوصول إلى الدنيا .

وقل من تراه يشتغل بهذا العلم الذى ذكرنا ، لأن هذا علم الخصوص ممزوج بالمرارة والغصص ، وسماعه يُضعف الركبتين ، ويُحزن القلب ويُدمع العين ، ويصغر العظيم ويعظم الصغير ، فكيف استعماله ومباشرته ، وذوقه ومنازلته ، وليس للنفس فى منازلته حظ ؛ لأنه منوط بأمانة النفوس ، وفقد المحسوس ، ومجانبة المراد ، فمن أجل ذلك ترك العلماء هذا العلم ، واشتغلوا باستعمال علم يُخف عليهم المؤن ، ويحثهم على التوسيع والرخص والتأويلات ، وقد يكون أقرب إلى حظوظ البشرية ،وأخف تحملاً على النفوس التى جُبلت على متابعة الحظوظ والمنافرة عن الحقوق ، والله تعالى أعلم .

باب الرد على من زعم أن الصوفية قوم جهلة ، وليس لعلم التصوف دلالة من الكتاب والأثر

قال الشيخ [الإمام أبو نصر] رحمه الله : لا خلاف بين الأئمة فى أنّ الله تبارك وتعالى ذكر فى كتابه الصادقين والصادقات ، والقانتين والقانتات ، والخاشعين ، والموقنين ، والمخلصين ، والمحسنين ، والخائفين ، والراجين ، والواجلين ، والعابدين ، والسائحين ، والصابرين ، والراضين ، والمتوكلين ، والمخبتين ، والأولياء ، والمتّقين ، والمصطفين ، [والمجتبين] ، والأبرار ، والمقرّبين .

وقد ذكر الله تعالى المشاهدين فقال : ([أو أَلْقَى السَّمْعَ] وَهُوَ شَهِيدٌ)(١) .
وذكر الله المطمئنّين فقال : (أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)(٢). وذكر الله تعالى السابقين ، والمقتصدين ، والمسارعين إلى الخيرات

٦ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إنّ من أمّتى مكلَّمين ومحدَّثين ، وإنّ
٧ عُمَرَ منهم » . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « رُبَّ أشْعَثَ أغبرَ ذى طِمْرَيْنِ
٨ لو أقسم على الله لأبره ، وإن البَرَاء منهم » . وقال لوابصة : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ »
ولم يقل لأحد غيره ذلك .

٩ وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يدخل بشفاعة رجل من أُمّتى الجنّة مثلُ
١٠ ربيعة ومُضر ، يقال له أُوَيْس القَرَنى » وفى الحديث : إن فى أُمّتى من إذا قرأ
ريتَ أنه يخشى الله تعالى ، وإن طلق بن حبيب منهم ، وقول النبى صلى الله
١١ عليه وسلم : « يدخل من أمّتى الجنّة سبعون ألفاً بلا حساب ، قيل : من هم
يا رسول الله ؟ قال : هم الذين لا يكتوون ولا يَسْتَرْقون وعلى ربّهم يتوكلون »
والآثار والأخبار فى مثل هذا تكثر .

---

(١) سورة ق : ٣٧ (٢) سورة الرعد : ٢٨

ولا خلاف أن هؤلاء كلهم فى أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يكونوا فى الأمة موجودين ، واستحال كونهم فى كل وقت ، لم يذكرهم الله تعالى فى كتابه ، ولم يصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولمّا رأينا أن اسم الإيمان قد شمل جميع المؤمنين ، وأفرد هؤلاء بأسماء مختصة من ذلك ، دل ذلك على تخصيصهم من عامّة المؤمنين الذين شملهم اسم الإيمان ، ولا يختلف أحد من الأئمة فى أن الأنبياء عليهم السلام الذين هم أعْلَى درجةً من هؤلاء ، وأقْرَبُ منزلةً عند الله تعالى منهم ، أنهم كانوا بشراً يجرى عليهم ما يجرى على سائر البشر من الأكل والنوم والحوادث .

وإنما وقع التخصيص للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، ولسائر هؤلاء الذين ذكرتُهم لسِرّ بينهم وبين معبودهم ، ولزيادة يقينهم وإيمانهم بما خاطبهم الله تعالى به وندبهم إليه ، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإنهم ينفردون عن هؤلاء بتخصيص الوحى والرسالة ودلائل النبوّة ، فلا يجوز لأحد أن يزاحمهم فى ذلك ، والله أعلم .

باب فى ذكر اعتراض الصوفية على المتفقه ، وبيان الفقه فى الدين ، ووجه ذلك بالحجة

قال الشيخ [أبو نصر] رحمه الله : رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من يرِد الله به خيراً يفقهه فى الدين » و بلغنى عن الحسن البصرى رحمه الله : أنه قيل له : فلان فقيه ، فقال الحسن : وهل رأيتَ فقيهاً قطّ ؟ إنّما الفقيه الزاهد فى الدنيا ، الراغب فى الآخرة ، البصير بأمر دينه . وقول الله تعالى : « لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ »(١) فالدين اسم يشتمل على جميع الأحكام ظاهراً و باطناً .

وليس التفقّه فى أحكام هذه الأحوال ومعانى هذه المقامات التى تقدّم ذِكْرُها بأقلّ فائدةً من التفقه فى أحكام الطلاق والعتاق والظهار والقصاص والقسامة والحدود ، لأنّ تلك أحكام ربّما لا تقع فى العمر حادثة تحتاج إلى علم ذلك ، فإذا وقعت تلك الحادثة فمن سأل عنها قلّدَ فى ذلك ، وأخَذَ بقول بعض الفقهاء ، فقد سقط عنه فرضُ ذلك إلى أن تقع به حادثة أُخْرَى ؛ وهذه الأحوال والمقامات والمجاهدات التى يتفقه فيها الصوفية و يتكلّمون فى حقائقها . فالمؤمنون مفتقرون إلى ذلك ، ومعرفة ذلك واجبة عليهم ، وليس لذلك وقت مخصوص دون وقت ، وذلك مثل الصدق والإخلاص والذكر ومجانبة الغفلة وغير ذلك ليس لها وقت معلوم ، بل يجب على العبد فى كلّ لحظة وخطرة أن يعلم ايش قصْدُهُ و إرادته وخاطره ، فإن كان حقا من الحقوق فواجبٌ عليه أن يلزمه ، و إن كان حظًّا من الحظوظ فواجبٌ عليه مجانبته ؛ قال الله تعالى لنبيه وصفيه محمد صلى الله عليه وسلم: « وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا»(٢) فمن ترك حالا من هذه الأحوال ما تركها إلا من غلبة الغفلة على قلبه .

---

(١) التوبة : ١٢٢ (٢) الكهف : الآية ٢٨

واعلم أن مستنبطات الصوفية في معانى هذه العلوم ومعرفة دقائقها وحقائقها ينبغى أن تكون أكثر من مستنبطات الفقهاء فى معانى أحكام الظاهر ، لأن هذا العلم ليس له نهاية ، لأنه إشارات وبوادٍ وخواطر وعطايا وهبات يغرفها أهلها من بحر العطاء ، وسائر العلوم لها حدٌّ محدود ، وجميع العلوم يؤدِّى إلى علم التصوف، [وعلم التصوّف لا يؤدِّى إلا إلى نوع من علم التصوف] وليس له نهاية ، لأن المقصود ليس له غاية ، وهو علم الفتوح يفتح الله تعالى على قلوب أوليائه فى فهم كلامه ومستنبطات خطابه ما شاء كيف شاء ، قال الله عزَّ وجلَّ : (قُلْ لَوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَاداً)[١] . وقال : (لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)[٢] ، والزيادة من الله تعالى لا نهاية لها ، والشكر نعمة تستوجب شكراً مستوجباً لمزيدٍ لا نهاية له ، وبالله التوفيق .

(١) الكهف : ١٠٩ (٢) ابراهيم : ٧

باب ذكر التخصيص فى علوم الدين وتخصيص كل علم بأهله ، والرد على من أنكر علماً برأيه ولم يدفع ذلك إلى أهله وإلى من يكون ذلك من شأنه

قال الشيخ [الإمام أبو نصر] رحمه الله : أنكرت جماعة من العلماء أن يكون فى علم الشريعة تخصيص ، ولا خلاف بين [هذه] الأمّة فى أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ ما أُنزل عليه فقال : (يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ [مِنْ رَبِّكَ])(١) .

١٣ ورُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا وابكيتم كثيراً» فلو كان الذى علم مما لا يعلمون من العلوم التى أمره بالإبلاغ لأبلغ ولو جاز لأصحابه أن يسألوه عن ذلك العلم لسألوه .

ولا خلاف بين أهل العلم أن فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان مخصوصاً بنوع من العلم ، كما كان حُذَيفة مخصوصاً بعلم أسماء المنافقين كان قد أسرّه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كان يسأله عُمَرُ رضى الله عنه فيقول : هل أنا منهم ؟

١٤ ورُوى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « علّمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين باباً من العلم لم يعلم ذلك أحداً غيرى » .

وقد ذكر هذا الباب بتمامه فى آخر الكتاب والمراد من تكراره هاهنا أن العلم الثابت بين أصحاب الحديث ، والفقهاء ، والصوفية ، هو علم الدين .

ولكلّ صنف من أهل العلم فى علمه دواوين ومصنّفات [وكتُب] وأقاويل ، ولكلّ صنف منهم أئمة مشهورون قد أجمع أهل عصرهم على إمامتهم ، لزيادة علمهم وفهمهم .

---

(١) المائدة : ٦٧

ولا خلاف فى أن أصحاب الحديث إذا أشكل عليهم علم من علوم الحديث وعِلَل الأخبار ومعرفة الرجال لا يرجعون فى ذلك إلى الفقهاء ، كما أن الفقهاء لو أشكل عليهم مسألة فى الخَلِيَّة والبَرِيَّة والدور والوصايا لا يرجعون فى ذلك إلى أصحاب الحديث ، وكذلك من أشكل عليه علم من علوم هؤلاء الذين تكلموا فى مواجيد القلوب ومواريث الأسرار ومعاملات القلوب ، ووصفوا العلوم واستنبطوا فى ذلك بإشارات لطيفة ومعان جليلة فليس له أن يرجع فى ذلك إلا إلى عالم ممن يكون هذا شأنه ، ويكون ممن قد مارس هذه الأحوال ونازلها واستبحث عن علومها ودقائقها ، فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ ، وليس لأحد أن يبسط لسانه بالوقيعة فى قوم لا يعرف حالهم ، ولم يعلم علمهم ولم يقف على مقاصدهم ومراتبهم فيهلك ويظن أنه من الناصحين ، أعاذنا الله تعالى وإياكم .

باب الكشف عن اسم الصوفية

ولِمَ سُمّوا بهذا الاسم ، ولِمَ نسبوا إلى [هذه] اللبسة

قال الشيخ رحمه الله : إن سأل سائلٌ فقال : قد نسبت أصحاب الحديث إلى الحديث ، ونسبت الفقهاء إلى الفقه فلِمَ قلت : الصوفية ولم تنسبهم إلى حال ولا إلى علم ، ولم تُضِف إليهم حالا كما أضفت الزهد إلى الزهّاد والتوكل إلى المتوكلين والصبر إلى الصابرين ؟ فيقال له : لأن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع ، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم ، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ، ومحل جميع الأحوال المحمودة ، والأخلاق الشريفة ، سالفاً ومستأنفاً ، وهم مع الله تعالى فى الانتقال من حال إلى حال ، مستجلبين للزيادة ؛ فلما كانوا فى الحقيقة كذلك لم يكونوا مستحقين اسماً دون اسم ، فلأجل ذلك ماأضفتُ إليهم حالا دون حال ، ولا أضفتهم إلى علم دون علم ، لأنى لو أضفتُ إليهم فى كل وقت حالا [هو] ماوجدت الأغلب عليهم من الأحوال والأخلاق والعلوم والأعمال وسميتهم بذلك ، لكان يلزم أن أسميهم فى كل وقت باسم آخر ، وكنت أضيف إليهم فى كل وقت حالا دون حال على حسب ما يكون الأغلب عليهم ، فلمّا لم يكن ذلك نسبتهم إلى ظاهر[1] اللبسة ، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ، ويكثر فى ذلك الروايات والأخبار ، فلمّا أضفتهم إلى ظاهر اللبسة كان ذلك اسماً

---

(١) هل الصوفية إلى الصوف ؟ ذلك ماختلف فيه مؤرخو التصوف فبعضهم ينسبها إلى الصوف وبعضهم يرجعها إلى « الصفة » وآخرون يرجعونها إلى الصفاء ويريد بعض المتأخر أن ينسبها إلى كلمة : « سيوزوفى » التى تعنى الإشراق وسيذكر المؤلف بعض هذه الآراء فيما بعد

مُجْملا عامًا مخبراً عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة ، ألا ترى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل : «وَإِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ» [الآية][١] وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين ؛ فكذلك الصوفية عندي والله أعلم .

نُسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها مترسمون ؛ لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار [المساكين] المتنسكين .

(١) المائدة : ١١٢ .

باب الرد على من قال :

لم نسمع بذكر الصوفية فى القديم وهو اسم مُحْدَث

إن سأل سائلٌ فقال : لم نسمع بذكر الصوفية فى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبّاد والزهّاد والسيّاحين والفقراء ؛ وما قيل لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: صوفىٌّ ، فنقول و بالله التوفيق :

الصُّحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لها حرمة ، وتخصيص من شمله ذلك ، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرفُ من الصحبة ، وذلك لشرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وحرمته ، ألا ترى أنهم أئمة الزهّاد والعبّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين ، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمّا نُسبوا إلى الصحبة التى هى أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التى هى أجلُّ الأحوال و بالله التوفيق.

وأما قول القائلِ : إنه اسم محدث أحدثه البغداديون ، فمحال ، لأن فى وقت الحسن البصرى رحمه الله كان يُعرف هذا الاسم ، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم ، وقد رُوى عنه أنه قال : رأيتُ صوفيًا فى الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال : معى أربعة دوانيق فيكفينى ما معى .

ورُوى عن سفيان الثورى رحمه الله أنه قال : لولا أبو هاشم الصوفى ماعرفت دقيق الرياء ، وقد ذكر فى الكتاب الذى جُمع فيه أخبار مكة عن محمد ابن إسحاق بن يسار ، وعن غيره يذكر فيه حديثاً : أنه قبل الإسلام قد

خلت مكة فى وقت من الأوقات ، حتى كان لا يطوف بالبيت أحد ، وكان يجىء من بلد بعيد رجل صوفىّ فيطوف بالبيت و ينصرف ؛ فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم ، وكان يُنسب إليه أهل الفضل والصلاح ، والله أعلم .

باب إثبات علم الباطن
والبيان عن صحة ذلك بالحجـــــة

قال الشيخ رحمه الله : أنكرت طائفة من أهل الظاهر وقالوا : لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التى جاء بها الكتاب والسنة ، وقالوا : لامعنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف ، فنقول ، و بالله التوفيق .

إن علم الشريعة علم واحد ، وهو اسم واحد يجمع معنيَين : الرواية والدراية ؛ فإذا جمعتَهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال : الظاهرة والباطنة ، ولا يجوز أن يجرّد القول فى العلم : أنه ظاهر أو باطن ؛ لأن العلم متى ما كان فى القلب فهو باطن فيه إلى أن يجرى و يظهر على اللســـــان ؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر ، غير أنّا نقول :

إن العلم : ظاهر ، و باطن ، وهو علم الشريعة الذى يدل و يدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة ، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة ، وهى العبادات والأحكام ، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك ؛ فهذه العبادات ، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها ، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التى هى الأعضاء ، وهى الجوارح ، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهى المقامات والأحوال ، مثل التصديق والإيمان واليقين والصدق والإخلاص والمعرفة والتوكل والمحبة

والرضا ، والذكر ، والشكر ، والإنابة ، والخشية ، والتقوى ، والمراقبة ، والفكرة والاعتبار ، والخوف، والرجاء ، والصبر ، والقناعة ، والتسليم ، والتفويض، والقرب، والشوق ، والوجد ، والوجل ، والحزن ، والندم ، والحياء ، والخجل ، والتعظيم ، والإجلال، والهيبة ، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علمٌ وفقه و بيان وفهم وحقيقة ووجد ، و يدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم علمه من علمه وجهله من جهله ؛ فإذا قلنا : علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة ، وهي القلب ، كما أنا إذا قلنا : علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة،وهي الأعضاء، وقد قال الله تعالى: « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً »(١) فالنعمة الظاهرة ما أنعم الله تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات ، والنعمة الباطنة ما أنعم الله تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ، ولا الباطن عن الظاهر ، وقد قال الله عز وجل : « وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ »(٢) ؛ فالعلم المستنبط هو العلم الباطن ، وهو علم أهل التصوّف ، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك ، ونحن نذكر إن شاء الله طرفاً من ذلك ؛ فالعلم ظاهر و باطن ، والقرآن ظاهر و باطن ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر و باطن ، والإسلام ظاهر و باطن ، ولأصحابنا فى معنى ذلك استدلالات واحتجاجات من الكتاب والسنة والعقل ، وشرحه يطول ويخرج على حدّ الاختصار إلى حد الإكثار ، وفيما قلنا كفاية ، و بالله التوفيق .

---

(١) لقمان : ٢٠

(٢) النساء : ٨٣

باب التصوف : ماهو ونعته وماهيته ؟

قال الشيخ رحمه الله : فأمّا التصوف ونعته وماهيته فقد سُئِل محمد بن على القصّاب ، وهو أستاذ الجُنيْد رحمه الله عن التصوف : ما هو ؟ قال : أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

وسُئِل الجنيد رحمه الله عن التصوّف ، فقال : أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة .

وسُئِل رُوَيْم بن أحمد رحمه الله عن التصوف ، فقال : استرسال النفس مع الله تعالى على مايريده .

وسئل سمنون رحمه الله عن التصوف ، فقال : أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شىء

وسئل أبو محمد الجريرى رحمه الله عن التصوف ، فقال : الدخول فى كل خُلق سنى والخروج من كل خلق دنى .

وسئل عمرو بن عثمان المكى رحمه الله عن التصوف ، فقال : أن يكون العبد فى كل وقت بما هو أولى فى الوقت .

وسئل على بن عبد الرحيم القناد رحمه الله عن التصوف ، فقال : نشر مقام واتصال بدوام .

باب صفة الصوفية، ومن هم ؟

قال الشيخ رحمه الله : وأما صفة الصوفية ومن هم : فقد قيل لعبد الواحد بن زَيد ، كما بلغنى ، وكان ممن يصحب الحسن رحمه الله . وكان من أجلة أصحابه : مَنِ الصوفية عندك ؟ فقال : القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم ، المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم ، هم الصوفية .

وسئل ذو النون المصرى رحمه الله عن الصوفى ، فقال : هو الذى لايتعبه طلب

ولا يزعجه سلب ، وقال أيضاً : هم قوم آثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء .

وقيل لبعضهم : من أصحبُ ؟ فقال : اصحب الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير ، وليس للكثير عندهم موقع فيرفعوك به فتعجب نفسك .

وسئل الجنيد بن محمد رحمه الله عن الصوفية : من هم ؟ فقال : أثرة الله في خلقه يخفيها إذا أحب ويظهرها إذا أحب .

وقيل لأبى الحسين أحمد بن محمد النورى رحمه الله : من الصوفى ؟ فقال : من سمع السماع وآثر بالأسباب .

وأهل الشام يسمون الصوفية فقراء ، ويقولون قد سماهم الله تعالى فقراء فقال : « لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ[1] » وقوله تعالى : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ[2] » .

وقيل لأبى عبد الله أحمد بن محمد بن يحيى الجلاء رحمه الله ما معنى الصوفى ؟ قال : ليس نعرفه فى شرط العلم ، ولكن نعرف فقيراً مجرداً من الأسباب كان مع الله عز وجل بلا مكان ولا يمنعه الحق من علم كل مكان سُمى صوفياً .

وقد قيل : كان فى الأصل صفوى فاستُثقل ذلك فقيل : صوفى .

وسئل أبو الحسن القناد رحمه الله عن معنى الصوفى فقال : مأخوذ من الصفاء وهو القيام لله عز وجل فى كل وقت بشرط الوفاء .

وقال بعضهم : من إذا استقبله حالان أو خُلقان حسنان فيكون مع الأحسن والأعلى .

---

(١) تكملة الآية : «وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولائكهم الصادقون» ٢٢ الحشر : ٨

(٢) تكملة الآية : «لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » البقرة ٢٧٣

وسئل آخر عن معنى الصوفى فقال : معناه أن العبد إذا تحقق بالعبودية وصافاه الحق حتى صفا من كدر البشرية نزل منازل الحقيقة وقارن أحكام الشريعة ، فإذا فعل ذلك فهو صوفى ، لأنه قد صوفى .

قال الشيخ رحمه الله : فإذا قيل لك : الصوفية من هم فى الحقيقة ؟ صِفهم لنا فقل : هم العلماء بالله و بأحكام الله ، العاملون بما علمهم الله تعالى ، المتحققون بما استعملهم الله عز وجل ، الواجدون بما تحققوا ، الفانون بما وجدوا ، لأن كل واجد قد فنى بما وجد .

وقال القناد رحمه الله : التصوف اسم قد وقع على ظاهر اللبسة ، وهم متفاوتون فى معانيهم وأحوالهم .

وسئل الشبلى رحمه الله: لِمَ سُميت الصوفية بهذا الاسم ؟ فقال : لبُقيا بقيت عليهم من نفوسهم ، ولولا ذلك لما لافت بهم الأسماء ، ولا تعلقت بهم .

وقد قيل أيضاً : إن الصوفية هم بقية من بقايا أهل الصُّفّة .

وأما من قال : إنه اسم واقع على ظاهر اللبسة فقد رُوى فى ذلك أخبار فى ذكر من لبس الصوف ، واختار لبسه من الأنبياء والصالحين وذكره يطول .

وقد أجاب عن التصوف: ما هو؟ جماعة بأجوبة مختلفة ، منهم إبراهيم بن المولد الرقى ، قد أجاب عنها بأكثر من مائة جواب ، وفيما ذكرناه كفاية ؛ وقد قال على بن عبد الرحيم القناد رحمه الله فى التصوف واندراس أهله شعراً :

أَهْلُ التَّصَوُّفِ قد مَضَوْا صارَ التَّصَوُّفِ مَخْرَقَهْ
صارَ التَّصَوُّفِ صَيْحَةً وتَوَاجُداً ومُطَبَّقَهْ
مَضَتِ العُلومُ فلا عُلومَ ولا قُلوبٌ مُشْرِقَهْ
كَذَبَتْكَ نَفسُكَ ليسَ ذَا سَنَنَ الطَّرِيقِ المَخْلَقَهْ
حَتَّى تَكُونَ بِعَيْنٍ مَنْ عَنْهُ العُيُونُ المُحْدِقَهْ
تَجْرِى عَلَيْكَ صُرُوفُهُ وهُمُومُ سِرِّكَ مُطْرِقَهْ

ولبعض المشايخ فى التصوف ثلاثة أجوبة : جواب بشرط العلم ، وهو تصفية القلوب من الأكدار ، واستعمال الخُلق مع الخليفة ، واتباع الرسول فى الشريعة ، وجواب بلسان الحقيقة ، وهو عدم الأملاك ، والخروج من رِق الصفات والاستغناء بخالق السموات ، وجواب بلسان الحق ، أصفاهم بالصفاء عن صفاتهم ، وصفاهم من صفاتهم ، فسموا صوفيةً .

وقلت للحصرى رحمه الله : من الصوفى عندك ؟ قال : الذى لا تقله الأرض ولا تظله السماء ، معناه : أنه ، وإن كان على الأرض وتحت السماء فالله عز وجل الذى يقله بالأرض ويظله بالسماء ، لا السماء ولا الأرض .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه كان يقول أى أرض تقلنى ؛ وأى سماء تظلنى ؛ إذا قلت فى كتاب الله عز وجل برأيى

باب التوحيد، وصفة الموحد، وحقيقته، وكلامهم فى معنى ذلك

قال الشيخ رحمه الله: بلغنى عن يوسف بن الحسين الرازى رحمه الله أنه قال: قام رجل بين يدى ذى النون المصرى رحمه الله فقال: خبرنى عن التوحيد :ماهو؟ قال: هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شىء صُنعه ولا علة لصنعه، وليس فى السموات العلى ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله تعالى، ومهما تصور وهمك فالله تعالى بخلاف ذلك، أو قال غير ذلك.

وقال الجنيد رحمه الله، وقد سئل عن التوحيد، فقال: إفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته بأنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد بنفى الأضداد والأنداد والأشباه وما عُبد من دونه، بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل، إلٰهاً واحداً صمداً فرداً ليس كمثله شىء وهو السميع البصير.

وسئل جنيد رحمه عن التوحيد مرة أخرى، فقال: معنى تضمحل فيه الرسوم وتندرج فيه العلوم، ويكون الله تعالى كما لم يزل.

قال أبو نصر رحمه الله: فالجوابان اللذان لذى النون والجنيد رحمهما الله فى التوحيد هما ظاهران، أجابا عن توحيد العام، وهذا الجواب الذى ذكرناه أشار إلى توحيد الخاصة.

وقد سئل الجنيد رحمه الله عن توحيد الخاصة، فقال: أن يكون العبد شبحاً بين يدى الله عز وجل تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته فى لُجَج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له وعن استجابته بحقائق وجود وحدانيته فى حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته، لقيام الحق له فيما أراد منه، وهو أن يرجع آخر العبد إلى أوله، فيكون كما كان قبل أن يكون؛ وقال أيضاً. التوحيد هو الخروج من ضيق رسوم الزمانية إلى سعة فِناء السرمدية.

فإن قال قائلٌ : مامعنى قوله : يرجع آخر العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون ، فيقول : بيان ذلك فيما قال الله عز وجل : « وإذْ أخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِيَّتَهُمْ . الآية[1] »

قال الجنيد رحمه الله في معنى ذلك : فمن أين كان وكيف كان قبل أن يكون ؟ وهل أجابت إلاّ الأرواح الطاهرة بإقامة القدرة وإنفاذ المشيئة ؟ فهو الآن فى الحقيقة كما كان قبل أن يكون ، وهذا غاية حقيقة التوحيد للواحد : أن يكون العبد كما لم يكن ، ويبقى الله تعالى كما لم يزل ؛ قال رجل للشبلى رحمه الله، واسمه دُلَف بن جَحْدَر : ياأبا بكر أخبرنى عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد ، فقال : ويحك ! من أجاب عن التوحيد بالعبارة فهو مُلحد ، ومن أشار إليه فهو ثَنَوى ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واصلٌ فليس له حاصلٌ ، ومن أوما إليه فهو عابد وَثَن ٍ ،ومن نطق فيه فهو غافل ، ومن ظن أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو فاقد ، وكلما ميزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فى أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم محدث مصنوع مثلكم.

وإن أخذنا فى شرح ما قال الشبلى رحمه الله كما يجب فيطول ذلك ، ولكن على الإيجاز والاختصار كأنه يريد بما أجاب عن التوحيد : إفراد القديم عن المُحْدَث ، وأن ليس للخلق طريق إلا ذكره ووصفه ونعته ، على مقدار ما أبْدَى إليهم ورسم لهم .

قال الشيخ رحمه الله : ووجدت ليوسف بن الحسين فى التوحيد ثلاث أجوبة :

جواب منها فى توحيد العامة ؛ وهو الانفراد بالوحدانية بذهاب رؤية الأضداد والأنداد والأشباه الأشكال مع السكون إلى معارضة الرغبة والرهبة بذهاب حقيقة التصديق لأنه ببقاء حقيقة التصديق لا يسكن إلى معارضة الرغبة والرهبة .

---

(١) التكملة : وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » : الأعراف : ١٧٢ .

والجواب الثانى : توحيد أهل الحقائق على الظاهر ، وهو الإقرار بالوحدانية بذهاب رؤية الأسباب والأشباه بإقامة الأمر والنهى فى الظاهر والباطن بإزالة معارضة الرهبة والرغبة مما سواه بقيام شواهد الحق مع قيام شواهد الدعوة والاستجابة ، فإن قيل : ما معنى قوله : إزالة معارضة الرهبة والرغبة وهما حقان ؟ فيقال : هما حقان ، هما فى موضعهما كما هما ، ولكن قهرَهما سلطان الوحدانية كما قهر سلطان ضوء الشمس ضوء الكواكب وهى فى مواضعها .

والجواب الثالث : توحيد الخاصة ، وهو أن يكون العبد بسره ووجده وقلبه كأنه قائم بين يدى الله عز وجل تجرى عليه تصاريف تدبيره ، وتجرى عليه أحكام قدرته فى بحار توحيده بالفناء عن نفسه وذهاب حسه بقيام الحق له فى مراده منه ، فيكون كما كان قبل أن يكون يعنى فى جريان أحكام الله عليه وإنفاذ مشيئته فيه .

وبيان ذلك كما قال الجُنَيْد رحمه الله فى قوله عز وجل : «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الآية وقد ذكرناه .

قال الشيخ رحمه الله : ولهم فى حقيقة التوحيد لسان آخر ، وهو لسان الواجدين ؛ وإشاراتهم فى ذلك تبعد عن الفهم ونحن نذكر من ذلك طرَفاً كما يُمكن شرحه ، وهذا العلم أكثرُهُ إشارة لا تخفى على من يكون أهله ، فإذا صار إلى الشرح والعبارة يخفى ويذهب رَوْنقه ، وإنما دعانى إلى شرحه لأنى وضعته فى الكتاب ، والكتاب ربما ينظر فيه من يفهم ومن لا يفهم فيهلك ، وهو مثل قول رُوَيْم بن أحمد بن يزيد البغدادى رحمه الله ، حين سئل عن التوحيد ، فقال : مَحْوُ آثار البشرية ، وتجرد الألوهية ، وإنما يريد بقوله : محو آثار البشرية تبديل أخلاق النفس ، لأنها تدعى الربوبية بنظرها إلى أفعالها ، كقول العبد : أنا وأنا ، لا يقول إلا الله ، إذ الإنية لله عز وجل ، فهذا معنى محو آثار البشرية ، ومعنى قوله تجرد الألوهية يعنى إفراد القديم عن المُحْدَثات .

وقال آخر التوحيد نسيان ما سوى التوحيد بالتوحيد ، يعنى فيما يوجب حُكمْ الحقيقة ؛ وقال : الوحدانية بقاء الحق بفناء كل مادون ، يعنى:فناء يوجب فناء،يوجب حُكمْ الحقيقة ، وقيل : الوحدانية بقاء الحق وفناء كل ما دونه ، يعنى: فناء العبد عن ذكر نفسه وقلبه بدوام ذكر الله تعالى وتعظيمه .

وقال آخر: ليس فى التوحيد خَلْقٌ ، وما وحد الله غيرُالله ، والتوحيد للحق من الخلق طفَيْلىّ،قلنا:و بيان ذلك وما أشار إليه هؤلاء. والله أعلم فى قول الله تعالى:(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالقِسْطِ لاَ إِلٰهَ إِلا هُوَ العِزِيزُ الحَكِيمُ(1)) فقد شهد لنفسه بالوحدانية قبل الخلق لحقيقة التوحيد من حيث الحق ما شهد الله لنفسه بالوحدانية قبل الخلق ، ومن حيث الخلق فقد وحدوه حقيقة ووجداً على مقدار ماقسم لهم وأرادهم بذلك ، وهوقوله تعالى: «وَالمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ » وأما من طريق الإقرار فأهل القبلة متساوون فيها ، والمعول على ما فى القلب لا على ما فى اللسان ، وقد قال الشبلى رحمه الله : ما شم روائح التوحيد من تصور عنده التوحيد وشاهد المعانى وأثبت الأسامى وأضاف الصفات وألزم النعوت ، ومن أثبت هذا كله ونفى هذا كله فهو موحد حكما ورسماً لا حقيقة ووجداً .

قال الشيخ رحمه الله : معناه والله أعلم :أنه يثبت الصفات والنعوت على رسم ما رسم له من ذلك ، ولا يثبتها من حيث الإدراك والإحاطة(2) والتوهم .

وقال غيره من العارفين : أما التوحيد : فهو الذى يُعمِّى البصير ، و يحير العاقل ، ويُدهش الثابت .

قلت : لأنه من تحقق بذلك وجد فى قلبه من عظمة الله تعالى وهيبته مايدهشه و يحير عقله إلا من يُثبته الله تعالى .

(1) آل عمران : ١٨

(2) فى نسخة أخرى والتفهم

وقال أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز رحمه الله :

أول مقام لمن وَجدَ علم التوحيد وحقّق بذلك : فناء ذكر الأشياء عن قلبه وانفراده بالله عز وجل .

وقال ، أيضاً: أول علامة التوحيد : خروج العبد عن كلّ شيء ، ورد جميع الأشياء إلى متوليها ، حتى يكون المتولّى بالمتولىِ ناظراً إلى الأشياء قائماً بها مُتمكناً فيها ، ثم يُخفيهم فى أنفسهم من أنفسهم ، و يُميت أنفسهم فى أنفسهم و يصطنعهم لنفسه . فهذا أول دخول فى التوحيد من حيث ظهور التوحيد بالديمومية .

قال : و بيان ذلك، والله أعلم : فناء ذكر الأشياء بذكر الله تعالى ؛ ومعنى خروجه عن كل شيء يعنى لا يضيف إلى نفسه واستطاعته شيئاً ، و يرى قوام الأشياء بالله فى الحقيقة لا بهم ، ومعنى قوله : حتى يكون المتولى بالمتولى ناظراً إلى الأشياء قائماً بها يشير إلى تولية الحق له ومايستولى عليه من حقائق التوحيد ، حتى يرى قوام الأشياء بالله عز وجل لا بذواتها ، ألا ترى إلى قول القائل :

وفى كلّ شيء له شاهد   يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ واحِدُ

وأما قوله : « متمكناً فيها » يريد بذلك أن التلوين لايجرى عليه فى نظره إلى الأشياء ؛ فإن قوامها بالله عزوجل ، ثم قال : « يخفيهم فى أنفسهم من أنفسهم ، و يميت أنفسهم فى أنفسهم » ، يعنى لايحسون حساً ، ولايلاحظون حركة من حركاتهم الظاهرة والباطنة يوماً إليها فى الحقيقة إلا وهى منطمسة تحت سلطان القدرة و إنفاذ المشيئة ، و إن أضيفت إلى المضاف إليه .

وقال الشبلى ، رحمه الله لرجل : تدرى لم لايصح لك التوحيد ؟

قال : لا .

قال : لأنك تطلبه بإياك .

وقال ، أيضاً : لايصح التوحيـد إلا لمن كان جحدُه إثباتَه ، فسئل عن الإثبات فقال : إسقاط الياءات .

معناه ، والله أعلم ، أن الموحد فى الحقيقة يجحد إثباته إياه : يعنى إثبات نفسـه فى جميع الأشياء بسره كقوله : بى ولى ومنى و إلىّ وعلىّ وفىّ وعنى ، فيسقط هـذه الياءات و يجحدها بسره ، و إن كانت جارية ، من حيث الرسم على لسانه .

وقال الشبلى رحمه الله ، الرجل ، أيضاً : توَحِدُ توحيدَ البشرية أوتوحيد الإلٰهية؟ فقال : فيهما فرقٌ ؟ فقال : نعم .

توحيد البشرية : خوف العقوبات . وتوحيد الألوهية توحيد التعظيم .

قال الشيخ رحمه الله : قلتُ : إن معناه أن من صفة البشرية طلب العوض ورؤية الفعل والطمع فى غير الله عزوجل ؛ وليس من وحد الله تعالى إجلالا لله كمن وحده خوفاً من عقوبته ، و إن كان الخوف من عذاب الله عزوجل حالة شريفة .

وقال الشبلى رحمه الله : من اطلع على ذرة من علم التوحيد ضعف عن حمل بقة لثقَلِ ماحمل .

وقال ، مرة أخرى : من اطلع على ذرة من علم التوحيد حمل السموات والأرض على شعرة من جفن عينيه .

وقال : معناه ، والله أعلم : أن السموات والأرض وجميع ماخلق الله عز وجل يتصاغر فى عينه ، عند مايشاهد بقلبه بأنوار التوحيد من عظمة الله عز وجل .

١٥ وقد روى : «أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح ، جناحان منها إذا نشرهما غطى بهما المشرق والمغرب» .

١٦ وقد روى ، أيضاً فى الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه : «أن صورة جبريل عليه السلام فى قائمة الكرسى مثل الزردة فى الجوشن» .

ويقال : « إن جبريل عليه السلام والعرشَ والكرسى ، كل هذا مع الملكوت ١٧
الذى ظهر لأهل العلم بالله عز وجل ، فإنما هى كرَمْلة فيما وراء الملكوت بل أقل من ذلك » .

وقال أبو العباس أحمد بن عطاء البغدادى رحمه الله فى بعض كلامه : علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد ، وصدق التوحيد أن يكون القائم به واحداً يريد بذلك : أن ينسى العبد رؤية توحيده فى توحيده برؤية قيام الله عزوجل له بذلك قبل خلقه ؛ لإنه لولم يُرِدْهم بذلك ما أرادوه (1) ولا وحدوه .

ولمشايخنا فى التوحيد مصنفات . وقد قصدنا إلى القليل المشكل من ألفاظهم ليُستدرَك به ما ألم أذكره ، إن شاء الله .

(١) يناسب هذا قول الله تعالى : « وماتشاءون إلا أن يشاء الله »

باب ماقالوا فى المعرفة ، وصفة العارف

وحقيقة ذلك ببيانها

سئل أبو سعيد الخراز رحمه الله عن المعرفة فقال :

المعرفة تأتى من وجهين : من عين الجود ، و بذل[1] المجهود .

وسئل أبو تراب النخشبي ، رحمه الله ، عن صفة العارف فقال :

هو الذى لا يكدره شيء ، و يصفو به كل شيء .

وقال أحمد بن عطاء ، رحمه الله :

المعرفة : معرفتان : معرفة حق ، ومعرفة حقيقة فمعرفة الحق : معرفة وحدانيته ، على ما أبرز للخلق من الأسامى والصفات . ومعرفة الحقيقة على أن لاسبيل إليها ؛ لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية ؛ لقوله ، عز وجل :

« وَلاَ يُحِيطونَ بِهِ عِلْماً[2] »

قال أبو نصر ، رحمه الله : معنى قوله : لاسبيل إليها يعنى إلى المعرفة على الحقيقة ؛ لأن الله تعالى أبرز لخلقه من أسمائه وصفاته ماعلم أنهم يطيقونه ؛ ذلك لأن حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق ، ولا ذرة منها ؛ لأن الكون بما فيه يتلاشى ، عند ذرة من أول باد يبدو من بوادى سطوات عظمته فمن يطيق معرفة من يكون هذا صفة من صفاته ؟ فلذلك قال القائل :

ما عرفه غيره ولاأحبه سواه ؛ لأن الصمدية ممتنعة عن الإحاطة والإدراك . قال الله عز وجل :

« وَلاَ يُحِيطونَ بِشَىء مِنْ عِلْمِهِ »[3] .

---

(١) هذه الفكرة الصحيحة فيا يتعلق بالمعروف : فبعضها لاشك هبة من الله ، وبعضها كسب للعبد

(٢) طه : ١١٠ (٣) البقرة : ٢٥٥

وقد حكى فى هذا المعنى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، أنه قال :

«سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته». ١٨

وسئل الشبلى :

متى يكون العارف بمشهد من الحق ؟ قال :

إذا بدا الشاهد ، وفنى الشواهد ، وذهب الحواس ، واضمحل الإحساس .

وسئل أيضاً :

ما بدؤ هذا الشأن وما انتهاؤه ؟ قال :

بدؤه معرفته ، وانتهاؤه توحيده وقال :

من علامة المعرفة : أن يرى نفسه فى قبضة العزة ، ويجرى عليه تصاريف القدرة .

ومن علامة المعرفة : المحبة ، لأن من عرفه أحبه .

وبلغنى عن أبى يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، رحمه الله أنه سئل عن صفة العارف ، فقال :

لون الماء لون إنائه إن صببته فى إناء أبيض خلته أبيض ، وإن صببته فى إناء أسود خلته أسود ؛ وكذلك الأصفر والأحمر ، وغير ذلك . يتداوله الأحوال ، وولىُّ الأحوال وليُّه .

وقال الشيخ ، رحمه الله : معناه ، والله أعلم : أن الماء على قدر صفائه بصفة لون إنائه ، ولا يغيره لون إنائه عن صفائه وحاله ، ويخال الناظر إليه أبيض أو أسود ، وهو فى الإناء بمعنى واحد ، وكذلك العارف وصفته مع الله ، عز وجل فيما يتداوله الأحوال يكون سره مع الله تعالى بمعنى واحد .

وسئل الجنيد رحمه الله عن معقول العارفين ، فقال :

ذهبوا عن وصف الواصفين .

وسئل بعضهم عن المعرفة فقال : مطالعة القلوب لإفراده على لطائف تعريفه .

وسئل الجنيد، رحمه الله، فقيل له: ياأبا القاسم ماحاجة العارفين [إلى الله تعالى]؟ قال حاجتهم إليه: كلائة ورعاية لهم.

وقال محمد بن المفضل السمرقندى، رحمه الله، بل لا حاجة لهم ولا اختيار؛ إذ بغير الحاجة والاختيار نالوا ما نالوا؛ لإن قيام العارفين بموجدهم وبقاءهم بموجدهم وفناءهم بموجدهم.

وقيل لمحمد بن المفضل، رحمه الله: حاجة العارفين إلى ماذا؟ قال: حاجتهم إلى الخصلة التى كملت بها المحاسن كلها، وبفقدها قبحت القبائح كلها وهى الاستقامة(١).

وسئل يحيى بن معاذ رحمه الله، عن صفة العارف، فقال: داخل معهم بائن منهم.

وسئل مرة أخرى عن العارف فقال: عبد كان فبان.

وقيل لأبى الحسين النورى، رحمه الله: كيف لا تدركه العقول ولا يعرف إلا بالعقول؟ فقال:

كيف يدرك ذو أمَدٍ من لا أمَدَ له، أم كيف يدرك ذو عاهة من لا عاهة له ولا آفة، أم كيف يكون مكيفاً من كيف الكيف، أم كيف يكون مُحَيِّثاً من حيث الحَيْث فسماه حيثاً، وكذلك أوّل الأول، وأخَّرَ الآخر، فسماه أولا وآخراً؛ فلولا أنه أول الأولَ وأخرَ الآخر ماعُرِف ما الأولية وما الآخرية.

ثم قال: وما الأزلية فى الحقيقة إلا الأبدية، ليس بينهما حاجزٌ، كما أن الأولية هى الآخرية والآخرية هى الأولية، وكذلك الظاهرية والباطنية، إلا أنه يفقدك وقتاً ويشهدك وقتاً لتجديد اللذة ورؤية العبودية، لأن من عرفه بالخلقة لم يعرفه بالمباشرة؛ لأن الخلقة على معنى قوله: كنْ، والمباشرة إظهار حرْمة لا استهانة فيه.

---

(١) يقول الله لرسوله فاستقم كما أمرت والرسول صلى الله عليه وسلم هو الذى يقول الله له: « وإنك لعلى خلق عظيم ».

قلتُ: معنى قوله : مباشرة يعنى مباشرة يقين ومشاهدة القلب بحقائق الإيمان بالغيب.

قال الشيخ رحمه الله : والمعنى ، فيما أشار إليه والله أعلم ، أن التوقيت والتغيير لا يجوز على الله تعالى ، فهو فيما كان كهو فيما يكون ، وهو فيما قال كهو فيما يقول ، والأدنى عنده كالأقصى ، والأقصى عنده كالأدنى ، وإنما يقع[1] التفاوت للخلق من حيث الخلق[2] والتلوين فى القرب والبعد والسخط والرضا صفة للخلق وليس ذلك من صفات الحق ، والله أعلم .

وقال أحمد بن عطاء ، رحمه الله ، فى كلام له فى معنى المعرفة : ويحكى أيضاً عن أبى بكر الواسطى رحمه الله والصحيح لابن عطاء رحمه الله قال : إنما قبحت المستقبحات باستتاره وحسنت المستحسنات بتجليه ؛ فإنهما نعتان يجريان على الأبد بما جريا به فى الأزل يظهر الوسمين على المقبولين والمطرودين ، فقد بان شواهد تجليه على المقبولين بضيائها كما بان شواهد استتارة على المرودين بظلمتها . فما ينفع بعد ذلك الألوان المصفرة ولا الأكام المقصرة ولا التدرع بالمطبقة والمرقّعة .

قلت: وهذا الذى قال ابن عطاء ، رحمه الله ، معناه قريب من قول أبى سليمان عبد الرحمن بن أحمد الدارانى ، رحمه الله ، حيث يقول :

ليس أعمال الخلق بالذى يسخطه ولا بالذى يرضيه ، وإنما رضى عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط .

ومعنى قول ابن عطاء رحمه الله : قبحت المستقبحات باستتاره ، يعنى بإعراضه عنها وحسنت المستحسنات بتجلية يعنى بإقباله عليهما وقبوله لها ، ومعنى ذلك كما جاء فى الحديث :

---

(١) فى نسخة أخرى التعارف .
(٢) فى نسخة أخرى التكوين

١٩ «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم و بيده كتابان : كتاب بيمينه وكتاب بشماله، فقال : هذا كتاب أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، وهذا كتاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم» الحديث

وقال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله ، لما تعرف بنفسه إلى خاصته : امتحقت نفوسهم فلم يشهدوا وحشة بشواهد الأول مما يبدو لهم من شواهد الحظوظ ، وكذلك كل من أعقب بمعنى ، وهذا معناه ، والله أعلم: أن شاهد الأولية ، فيما عرف بما تعرف إليه معبوده لم يشهد وحشة مع معرفته بذلك فيما سواه ولا أنساً بهم .

باب فى صفة العارف

وما قالوا فيه

قال يحيى بن معاذ الرازى ، رحمه الله : ما دام العبد يتعرف فيقال : لا تختر شيئاً ، ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف ، فإذا عرف وصار عارفاً فيقال له : إن شئت اختر وإن شئت لا تختر ، لأنك إن اخترت فباختيارنا اخترت ، وإن تركت الاختيار فباختيارنا تركت الاختيار ، فإنك بنا فى الاختيار وفى ترك الاختيار .

وقال يحيى بن معاذ ، رحمه الله : الدنيا عروس ومن يطلبها ما شطتها ، والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها ، والعارف بالله مشتغل بسيده لا يلتفت إليها .

وقال : إذا ترك العارف أدبه عند معرفته فقد هلك مع الهالكين .

وقال ذو النون ، رحمه الله : علامة العارف ثلاثة : لا يطفىء نورُ معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطناً من العلم ينقض عليه ظاهراً من الحكم ، ولا يحمله كثرة نعم الله تعالى عليه وكرامته على هتك أستار محارم الله تعالى .

وقال بعضهم : ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة ، فكيف عند أبناء الدنيا ؟

وقال : إن التفت العارف إلى الخلق عن معروفه بغير إذنه ، فهو مخذول بين خلقه .

وقال : كيف تعرفه وليس فى قلبك سلطان هيبته ؟ وكيف تذكره وتحبه وليس فى قلبك وجود ألطافه وأنت غافل عما ذكرك به قبل خلقه ؟

سمعت محمد بن أحمد بن حمدون الفراء يقول : سمعت عبد الرحمن الفارسي وقد سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت المتفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز .

وقال أبو نصر ، رحمه الله : معنى ذلك أن يكون وقت العبد وقتاً واحداً بلا تغيير ، ويكون العبد فى جميع أحواله بالله ولله مأخوذاً عما سوى الله فعند ذلك يكون هذا حاله .

باب فى قول القائل بم عرفت الله ؟ والفرق بين المؤمن والعارف

قيل لأبى الحسين النورى ، رحمه الله : بم عرفت الله تعالى ؟ فقال : بالله قيل : فما بال العقل ؟ قال : العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله ، «لما خلق الله العقل قال ٢٠
له : من أنا فسكت ، فكحله بنور الوحدانيه فقال : أنت الله » فلم يكن للعقل أن يعرف الله إلا بالله .

وسئل عن أول فرض افترض الله تعالى على عباده ما هو ؟ فقال : المعرفة ؛ لقوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ »[1] وقال ابن عباس ، رضى الله عنه : لِيَعْرِفونِ .

وسئل بعضهم ما المعرفة ؟ فقال :

تحقيق القلب بإثبات وحدانيته بكمال صفاته وأسمائه ؛ فإنه المتفرد بالعز والقدرة والسلطان والعظمة الحى الدائم الذى ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير بلا كيف ولا شبه ولا مثل ، بنفى الأضداد والأنداد والأسباب ، عن القلوب .

وقد قيل ، أيضا : إن أصل المعرفة موهبة . والمعرفة نار والإيمان نور ، والمعرفة وجد ، والإيمان عطاء ؛ والفرق بين المؤمن والعارف :

المؤمن ينظر بنور الله ، والعارف ينظر بالله عز وجل ؛ وللمؤمن قلب وليس للعارف قلب ، وقلب المؤمن يطمين بالذكر ولا يطمين العارف بسواه .

---

(١) الذاريات : ٥٦

والمعرفة على ثلاثة أوجه : معرفة إقرار ، ومعرفة حقيقة ، ومعرفة مشاهدة ؛ وفى معرفة المشاهدة يندرج الفهم والعلم والعبارة والكلام ؛ والإشارات فى المعرفة ووصفها كثير ، وفى القليل كفاية وغنية المستدل والمسترشد ، و بالله التوفيق .

وعن الحسن بن على بن حيويه الدامغانى قال : سئل أبو بكر الزاهراباذى عن المعرفة فقال : المعرفة اسم ، ومعناه وجود تعظيم فى القلب يمنعك عن التشبيه والتعطيل .

كتاب الأحوال والمقامات

باب فى المقامات وحقايقها

قال الشيخ ، رحمه الله : فإن قيل : ما معنى المقامات ؟ يقال : معناه مقام العبد بين يدى الله عزّ وجلّ ، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عزّ وجلّ ، وقال الله تعالى :

« ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ »[1] وقال :

« وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ[2] » .

وقال : سئل أبو بكر الواسطى رحمه الله عن قول ، النبى صلى الله عليه وسلم :

« الأرواح جنود مجندة » ٢١

قال « مجندة » على قدر المقامات ، والمقامات مثل التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل وغير ذلك

(١) إبراهيم : ١٤ (٢) الصافات : ١٦٤

باب فى معنى الأحوال(١)

قال الشيخ ، رحمه الله : وأمّا معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب ، أو تحل به القلوب : من صفاء الأذكار .

وقد حُكى عن الُجنَيد ، رحمه الله : أنه قال : الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم .

وقد قيل ، أيضاً : إن الحال هو الذكر الخفىّ .

وقد رُوِى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خيرُ الذكرِ : الخفىُّ ». ٢٢

وليس الحال من طريق المجاهدات والعبادات والرياضات كالمقامات التى ذكرناها ، وهى(٢) مثل المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين وغير ذلك .

وقد حُكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله ، أنه قال : إذا صارت المعاملة إلى القلوب استراحت الجوارح .

وهذا الذى قال أبو سليمان ، يحتمل معنيين :

أحدهما : أنه أراد بذلك : استراحت الجوارحُ من المجاهدات ، والمكابداتُ من الأعمال : إذا اشتغل بحفظ قلبه ومراعاة سره من الخواطر المشغلة ، والعوارض المذمومة التى تشغل قلبه عن ذكر الله تعالى .

ويحتمل أيضاً أنه أراد بذلك : أن يتمكن من المجاهدة والأعمال والعبادات ،

---

(١) فى هامش إحدى النسخ الفرق بين المقام والحال : أن الحال ينزل بالقلوب يدوم. والمقام: مقام الرجل بظاهره وباطنه فى حقائق الطاعات .

(٢) أى الحال .

وتصير وطنَهُ حتى يستلذّها بقلبه ، ويجد حلاوتها ، ويسقط عنه التعب ، ووجود الألم الذى كان يجد قبل ذلك .

كما قال بعضهم ، وأظُنُّهُ محمد بن واسع ، رحمه الله ، قال : كابدتُ الليل عشرين سنة فتنعّمتُ به عشرين سنة .

وقال آخر ، وأظنّه مالك بن دينار ، رحمه الله : مضغتُ القرآن عشرين سنة ثم تنعّمت بتلاوته عشرين سنة .

وقال الُجنيْد ، رحمه الله : لا يُوصَلُ إلى رعاية الحقوق إلا بحراسة القلوب ، ومن لم يكن له سرّ فهو مُصِرّ ، والمصرّ لا تصفو له حسنة .

وأجوبة الشيوخ فى المقامات تكثر ، وكذلك فى الأحوال ، وقد ذكرته على الاختصار ، والله الموفّق .

باب مقام التوبة

قال أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسى ، رحمه الله : أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة .

وسئل السوسى عن التوبة فقال : التوبة الرجوع من كل شىء ذمه العلم إلى ما مدحه العلم .

وسئل سهل ابن عبد الله عن التوبة فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وسئل الجنيد رحمه الله عن التوبة فقال : هى نسيان ذنبك .

قال الشيخ ، رحمه الله : فالذى أجاب السوسى رحمه الله عن التوبة أجاب عن توبة المريدين والمتعرضين والطالبين والقاصدين ، وهم الذين تارة لهم وتارة عليهم . والذى قال سهل بن عبد الله أيضاً فكذلك .

وأما ما أجاب الجنيد رحمه الله عن التوبة : أن ينسى ذنبه : أجاب عن توبة المتحققين : لا يذكرون ذنوبهم ؛ لما غلب على قلوبهم من عظمة الله تعالى ودوام ذكره .

وهو مثل ما سئل رُوَيْم بن أحمد رحمه الله التوبة فقال : التوبة من التوبة .
كذلك سئل ذو النون رحمه الله عن التوبة فقال : توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة .

فأما لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص فى معنى التوبة فهو : ما قاله أبو الحسن النورى رحمه الله ، حين سئل عن التوبة فقال : التوبة : أن تتوب من كل شىء سوى الله تعالى .

وإلى هذا أشار الذى أشار بقوله : ذنوب المقربين حسنات الأبرار وهو ذو النون .

والذى قال أيضاً : رياء العارفين إخلاص المريدين ؛ لأن الذى كان يتقرب به العارف إلى الله عزّ وجلّ فى وقت قصدة وابتدائه وتعرضه من القربات والطاعات فلما تمكن وتحقق بذلك ، وشملته أنوار الهداية ، وأتته العناية ، وحوته الرعاية ، وشاهد ما شاهده بقلبه من عظمة سيده ، والتفكر فى صنع صانعه ، وقديم إحسانه ، تاب عن الملاحظة والسكون ، والالتفات إلى ما كان من طاعاته وأعماله وقرباته فى حين إرادته و بداياته ، فشتان بين تائب وتائب : فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات .

والتوبة تقتضى الورع .

باب مقام الورع

قال الشيخ رحمه الله . ومقام الورع مقام شريف .

٢٣ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « ملاكُ دينكم الورع » .

وأهل الورع على ثلاث طبقات : فمنهم من تورّع عن الشبهات التى اشتبهت عليه ، وهى مابين الحرام البيّن والحلال البيّن ، وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق، فيكون بين ذلك فيتورّع عنهما .

وهو كما قال ابن سيرين رحمه الله : ليس شيء أهْوَنُ علىّ من الورع ؛ إذا رابنى شيء تركتهُ .

ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك فى صدره عند تناولها[١] وهذا لايعرفه إلا أرباب القلوب والمتحققون .

٢٤ وهو كما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الإثم ما حاك فى صدرك »

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق من مثاقيل الذر ، حتى لايكون لأحدهم قِبلَكَ مظلمة ولا دعوى ولا طِلبة .

وكما حُكى عن الحارث المحاسبى رحمه الله أنه كان لايمد يده إلى طعام فيه شبهة .
وقال جعفر الخلدى رحمه الله : كان على طرف أصبعه[٢] الوسطى عِرْقٌ إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك العرق .

وكما حكى عن بشر الحافى رحمه الله : أنه حُمِل إلى دعوة ، فوُضع بين يديه

(١) عند تناول الشبهات .
(٢) يريد أصبع الحارث المحاسبى رضى الله عنه .

طعام ، فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد ، ثم جهد فلم تمتد ثلاث مرات ، فقال رجل ممن كان يعرفه : إن يده لا تمتد إلى طعام حرام أو فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الرجل إلى بيته .

وتقوى هـذا حكاية سهل بن عبد الله : سمعت أحمد بن محمد بن سالم بالبصرة يقول : سُئل سهل بن عبد الله عن الحلال فقال : الحلال الذى لا يُعصى الله فيه .

قال أبو نصر رحمه الله : والذى لا يعصى الله فيه لا يتهيأ لأحد الوقوف عليه إلا بإشارة القلب .

فإن قال قائل : هل تجد لذلك أصلا يتعلق به من العلم فيقال : نعم ، قول النبى صلى الله عليه وسلم لوابصة : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ و إن أفتاك المُفْتون » . والذى قال أيضاً : « الإثم ماحاك فى صدرك » ألا ترى أنه قد رده إلى مايشير به علية قلبه ؟

وأما الطبقة الثالثة فى الورع فهم : العارفون والواجدون ، وهو كما قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : كل ما شغلك عن الله فهو مشئوم عليك .

وكما قال سهل بن عبد الله حين سئل عن الحلال الصافى فقال : الحلال الذى لا يُعصى الله فيه ، والحلال الصافى الذى لا يُنسى الله فيه .

فالورع فيما لا ينسى الله فيه هو الورع الذى سئل عنه الشبلى رحمه الله ، فقيل له : يا أبا بكر ما الورع ؟ فقال : أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله عز وجـــل طرفة عين .

فالأول ورع العموم ، والثانى ورع الخصوص، والثالث ورع خصوص الخصوص.

والورع يقتضى الزهد .

باب مقام الزهد

قال الشيخ رحمه الله : والزهد مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ؛ وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يُحكم أساسه فى الزهد لم يصح له شىء مما بعده ، لأن حُب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد فى الدنيا رأس كل خير وطاعة .

ويقال : إن من سُمِى باسم الزهد فى الدنيا فقد سُمى بألف اسم محمود ، ومن سمى باسم الرغبة فى الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم .

وهو ما اختار رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه باختيار الله له ، والزهد فى الحلال الموجود .

وأما الحرام والشبهة فتركه واجب .

والزهّاد على ثلاث طبقات :

فمنهم المبتدئون ، وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك ، وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم .

كما سئل الجنيد رحمه الله عن الزهد فقال : تخلى الأيدى من الأملاك ، وتخلى القلوب من الطمع .

وسئل سرى السَّقَطى ، رحمه الله عن الزهد فقال : أن يخلو قلبه مما خلت منه يداه .

وفرقة منهم متحققون فى الزهد .

ووصفهم ما أجاب رُوَيْم بن أحمد رحمــه الله ، حين سئل عن الزهد فقال : ترك حظوظ النفس من جميع مافى الدنيا ، فهذا زهــد المتحققين ، لأن فى الزهد فى الدنيا حظا للنفس ، لما فى الزهد من الراحة والثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ؛ فمن زهد بقلبه فى هذه الحظوظ فهو متحقق فى زهده .

والفرقة الثالثة : علموا وتيقنوا : أن لو كانت الدنيا كلها لهم ملــكاً حلالا ، ولا يحاسبون عليها فى الآخرة ، ولا ينقص ذلك مما لهم عند الله شيئاً ثم زهدوا فيها لله عز وجل ، لــكان زهدهم فى شىء منذ خلقها الله تعالى مانظر إليهـا ، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الــكافر منها شربة من ماء ، فعند ذلك زهدوا فى زهدهم وتابوا من زهدهم .

كما سئل الشبلى رحمــه الله عن الزهد فقال : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لاشىء ، والزهد فى لا شىء غفلة .

وقال يحيى بن معاذ رحمه الله : الدنيا كالعروس ، ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجههـــا ، وينتف شعرها ، ويخرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله لا يلتفت إليها .

والزهد يقتضى معانقة الفقر واختياره

باب مقام الفقر وصفة الفقراء

قال الشيخ ، رحمه الله ، والفقر مقام شريف، وقد وصف الله تعالى الفقراء وذكرهم في كتابه فقال : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ »[1] تكملة الآية .

٢٦ وقال صلعم : (الفقر أزين بالعبد المؤمن من العِذار الجيد على خد الفرس) .

وقال إبراهيم بن أحمد الخواص رحمه الله : الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج المتقين ، وزين المؤمنين ، وغنيمة العارفين ، ومنبه المريدين ، وحصن المطيعين ، وسجن المذنبين ، ومكفر للسيئات ، ومعظم للحسنات ، ورافع للدرجات ، ومبلغ إلى الغايات ، ورضا الجبار ، وكرامة لأهل ولايته من الأبرار ؛ والفقر هو شعار الصالحين ، ودأب المتقين .

والفقراء على ثلاث طبقات :

فمنهم من لا يملك شيئاً ، ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا ينتظر من أحد شيئاً ، وإن أعطى شيئاً لم يأخذ ، فهذا مقامه مقام المقربين .

كما حُكى عن سهل بن على بن سهل الأصبهانى : أنه كان يقول : حرامٌ على كل من يسمى أصحابنا الفقراء ؛ لأنهم أغنى خلق الله عز وجل .

وكما سئل أبو عبد الله بن الجلاء عن حقيقة الفقر فقال : اضرب بكميك على الحائط وقل : ربى الله .

وكما قال أبو على الروذبارى : سألنى أبو بكر الزقاق فقال : يا أبا على ، لِمَ ترك الفقراء أخذ البُلغة فى وقت الحاجة ؟ قال : فقلت : لأنهم مستغنون بالمُعْطى عن العطاء ، فقال : نعم ، ولكن وقع لى شيء آخر ، فقلت : هات ، أفدنى ،

---

(١) البقرة : ٢٧٤ وتكملة الآية كالآتى : « لايستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم ، لايسألون الناس إلحافا وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم » .

ما وقع لك ؟ فقال : لأنهم قوم لاينفعهم الوجود ؛ إذ الله فاقتهم ، ولا تضرهم الفاقة ، إذ الله وجودهم .

وسمعت أبا بكر الوجيهى يقول : سمعت أبا على يقول : هذا .

وسمعت أبا بكر الطوسى يقول : كنت مدة طويلة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء ، فلم يُجبنى أحد بجواب يُقنعنى ، حتى سألت نصر بن الحامى ، فقال لى : لأنه أول منزلة من منازل التوحيد ، فقنعت بذلك .

ومنهم من لا يملك شيئاً ، ولا يسأل أحداً ، ولا يطلب ، ولا يعرض ، وإن أعطى شيئاً من غير مسألة أخذ .

وقد حُكى عن الجنيد ، رحمه الله ، أنه قال : علامة الفقير الصادق أن لايسأل ، ولا يعارض ، وإن عورض سكت .

وكما حُكى عن سهل بن عبد الله ، رحمه الله ، أنه سئل عن الفقير الصادق فقال: لا يسأل ولا يردّ ، ولا يحبس .

وكما سئل أبو عبد الله بن الجلاء رحمه الله عن حقيقة الفقر فقال : هو أن لا يكون لك ، فإذا كان لك لا يكون لك ، ومن حيث لم يكن لك لم يكن لك .

وكما سئل إبراهيم الخواص رحمه الله عن علامة الفقير الصادق فقال : ترك الشكوى وإخفاء أثر البلوى ، ولهذا قد قيل : إن هذا مقامه مقام الصدّيقين .

ومنهم من لا يملك شيئا ، وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه ، فكفارة مسألته صدقة .

وهذا كما سئل الجريرى مسألته ، رحمه الله ، عن حقيقة الفقر فقال : لايطلب المعدوم حتى يفقد الموجود .

وكما سئل رُوَيم رحمه الله عن الفقر فقال : عدم كل موجود ، ويكون دخوله فى الأشياء لغيره لا له ، وهذا مقامه مقام الصديقين فى الفقر .

والفقر يقتضى مقام الصبر .

باب مقام الصبر

قال الشيخ ، رحمه الله : والصبر مقام شريف وقد مدح الله تعالى الصابرين وذكرهم فى كتابه فقال :[١]

« إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »

وقد سئل الجنيد عن الصبر فقال : حَمْلُ المؤن لله تعالى حتى تنقضى أوقات المكروه .

وقال ابرهيم الخواص رحمه الله : هرب أكثر الخلق من حمل أثقال الصبر فالتجئوا إلى الطلب والأسباب واعتمدوا عليها كأنها لهم أرباب ؛ قال .

ووقف رجل على الشبلى رحمه الله ، فقال له : أى صبر أشد على الصابرين .

فقال : الصبر فى الله تعالى .

فقال : لا .

فقال الصبر لله .

فقال الرجل : لا .

فقال : الصبر مع الله .

فقال : لا .

قال : فغضب الشبلى رحمه الله وقال : ويحك فأيش ؟

فقال الرجل : الصبر عن الله عز وجل ، قال : فصرخ الشبلى رحمه الله صرخة كاد أن يتلف روحه .

وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : على ثلاثة أوجه : متصبر ، وصابر ، وصبار ، فالمتصبر من صبر فى الله تعالى ، فمرة يصبر على المكاره ، ومرة يعجز .

---

(١) الزمر : ١٠ .

وهذا كما سئل القناد ، رحمه الله ، عن الصبر فقال : ملازمة الواجب فى الإعراض عن المنهى عنه ، والمواظبة على المأمور به ، والصابر من يصبر فى الله ، ولله ، ولا يجزع ، ولا يتمكن منه الجزع، و يتوقع منه الشكوى.

كما حكى عن ذو النون ، رحمه الله ، أنه قال : دخلت على مريض أعوده ، فبينما كان يكلمنى أنّ أنة ، فقلت له : ليس بصادق فى حبه من لم يصبر على ضربه . قال : فقال : بل ليس بصادق فى حبه من لم يتلذذ بضربه .

وكما قال الشبلى ، رحمه الله ؛ لما أدخل المارستان، وقيد ، فدخل عليه بعض أصدقائه، فقال لهم : أيش أنتم ؟ فقالوا : نحن قوم نحبك فأخذ يرميهم بالآجر ، فهربوا . فقال: يا كذابون ، تدعون محبتى ولم تصبروا على ضربى ؟!

وأما الصبار : فذاك الذى صبره فى الله ، ولله و بالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة .

وكان يتمثل الشبلى ، رحمه الله ، بهذه الأبيات إذا سئل عن الصبر .

عبراتٌ خططْنَ فى الخدّ سطراً   قدْ قراها منْ ليس يحسنُ يقرا
إن صوت المحب من ألم الشو   ق وخوف الفراق يورث ضرا
صابر الصبر فاستغاث به الصـــبر   فصاح المحب بالصبر : صبرا

وحجة هذا فى العلم ما روى فى الخبر : « أن زكريا عليه السلام لما وضع على ٢٧
رأسه المنشار أنّ أنة واحدة فأوحى الله تعالى إليه أن صعدت منك إلى أنة أخرى لأقلبن السموات والأرضين بعضها على بعض »

والصبر يقتضى التوكل.

باب مقام التوكل

قال الشيخ ، رحمه‌الله : والتوكل مقام شريف ، وقد أمر الله ، تعالى ، بالتوكل وجعله مقروناً بالإيمان ؛ لقوله تعالى :

« وَعَلَى الله فليتوكل المتوكلون[1] » .

وقال ، فى موضع آخر : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون[2] » فخص توكل المتوكلين من توكل المؤمنين ، ثم ذكر توكل خصوص الخصوص فقال :

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه[3] » لم يردهم إلى شىء سواه كما قال لسيد المرسلين و إمام المتوكلين :

« وتوكل على الحى الذى لا يموت وكفى به[4] » « وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم » الآية فهم على ثلاث طبقات :

فأما توكل المؤمنين فشرطه ما ثلاث قال أبو تراب النخشبى ، رحمه الله ، حين سئل عن التوكل ، فقال :

التوكل: طرح البدن فى العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطى شكر ، وإن منع صبر راضياً موافقاً للقدر .

وكما سئل ذو النون رحمه الله عن التوكل فقال : التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع من الحول والقوة .

وكما قال أبوبكر الزقاق رحمه الله:التوكل ردالعيش إلى يوم واحد ، و إسقاطهم غد

وسئل رويم رحمه الله ، عن التوكل فقال : الثقة بالوعد .

وسئل سهل بن عبد الله رحمه الله ، عن التوكل فقال : الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد .

وأما توكل أهل الخصوص فكما قال أبو العباس بن عطاء ، رحمه الله : من

(١) إبراهيم : ١٢ (٢) المائدة : ١١ (٣) الطلاق : ٣ (٤) الفرقان : وتكملة الآية : « بذنوب عباده خبيراً » : ٥٨ .

توكل على الله لغير الله لم يتوكل على الله فى توكله حتى يتوكل على الله بالله لله ، ويكون متوكلا على الله فى توكله لا لسبب آخر .

أو كما قال أبو يعقوب النهرجورى ، رحمه الله ، وقد سئل عن التوكل ، فقال : موت النفس عند ذهاب حظوظها من أسباب الدنيا والآخرة .

وقد قال أيضاً أبو بكر الواسطى : أصل التوكل الفاقة والافتقار ، وأن لا يفارق التوكل فى أمانيه ، ولا يلتفت بسرّه إلى توكله لحظة فى عمره .

وسئل سهل بن عبد الله ، رحمه الله أيضاً عن التوكل ، فقال : التوكل وجْهٌ كلّه وليس له قفاً ، ولا يصح إلا لأهل المقابر .

فهؤلاء أشاروا إلى حقيقة توكل المتوكلين وهم الخصوص .

وأما توكل خصوص الخصوص فعلى ما قال الشبلى رحمه الله ، حين سئل عن التوكل فقال : أن تكون لله كما لم تكن ويكون الله تعالى لك كما لم يزل .

وكما قال بعضهم: حقيقةالتوكل لايقوم له أحد من خلقهعلى الكمال، لأنالكمال بالكمال لا يكون إلا لله ، جل جلاله.

وسئل أبو عبد الله بن الجلاء عن التوكل فقال : الإيواء إلى الله وحده . فى جميع الأحوال .

وسئل الجنيد رحمه الله عن التوكل فقال : اعتماد القلب على الله تعالى

وقد حكى عن أبى سليمان الدارانى رحمه الله أنه قال لأحمد بن أبى الحوارى ، رحمه الله : يا أحمد ، إن طرق الآخرة كثيرة وشيخك عارف بكثير منها إلا هذا التوكل المبارك فإنى ما شممت منه رائحة ، وليس لى منه مشام الريح .

وقال بعضهم : من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبراً ويدفنها فيه ، وينسى الدنيا وأهلها ؛ لأن حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله .

والتوكل يقتضى الرضا .

باب مقام الرضا وصفة أهله

قال الشيخ رحمه الله : الرضا مقام شريف ، وقد ذكر الله عز وجل الرضا في كتابه فقال :

« رَضِيَ اللهُ عنهم ورضوا[1] عنه » ، وقال:

« ورضوان من الله أكبر »[2] فذكر أن رضا الله عز وجل ، عن عباده أكبر وأقدم من رضاهم عنه .

والرضا باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا ، وهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل .

وسئل الجنيد رحمه الله عن الرضا ، فقال : الرضا رفع الاختيار .

وسئل القناد رحمه الله عن الرضا فقال : سكون القلب بمر القضاء .

وسئل ذو النون عن الرضا فقال سرور القلب بمر القضاء .

وقال ابن عطاء رحمه الله : الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله ، تعالى ، للعبد ؛ لأن يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط .

وقال أبو بكر الواسطي ، رحمه الله استعمل الرضا جهدك ، ولا تدع الرضا يستعملك فتكون محجوباً بلذته ورؤية حقيقته .

غير أن أهل الرضا في الرضا على ثلاثة أحوال :

فمنهم من عمل في إسقاط الجزع حتى يكون قلبه مستوياً لله عز وجل فيما يجرى عليه من حكم الله من المكاره والشدائد والراحات والمنع والعطاء .

---

(١) المائدة : ١١٩

(٢) التوبة : ٧٢

ومنهم من ذهب عن رؤية رضائه عن الله عز وجل ، برؤية رضا الله عنه ؛ لقوله ، تعالى : « رضى[1] الله عنهم ورضوا عنه » ، فلا يثبت لنفسه قدم فى الرضا وإن استوى عند الشدة والرخاء والمنع والعطاء .

ومنهم من جاوز هذا وذهب عن رؤية رضا الله عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى لخلقه من الرضا ، كما قال أبو سليمان الدارانى ، رحمه الله : ليس أعمال الخلق بالذى يرضيه ولا بالذى يسخطه ، ولكنه رضى عن قوم فاستعملهم بعمل أهل الرضا ، وسخط على قوم فاستعملهم بعمل أهل السخط .

والرضا آخر المقامات ثم يقتضى من بعد ذلك أحوال أرباب القلوب ، ومطالعة الغيوب ، وتهذيب الأسرار لصفاء الأذكار وحقائق الأحوال .

فأول حال من أحوال أرباب القلوب حال المراقبة .

(١) الأنفال : ١١٩

باب حال المراقبة وحقائقها وصفة أهلها

قال الشيخ ، رحمه الله : والمراقبة حال شريف ، قال الله ، تعالى : « وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ(١) رَقِيبًا » ، وقال عز وجل : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »(٢) ، وقال : « ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجويهم وأن الله علام الغيوب»(٣) ومثله فى القرآن كثير .

٣١ وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : انه قال : «أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك »

والمراقبة : لعبد قد علم وتيقن أن الله تعالى مطلع على ماف قلبه وضميره وعالم بذلك ، فهو يراقب الخواطر المذمومة المشغلة للقلب عن ذكر سيده

كما قال أبو سليمان الدارانى رحمه الله : كيف يخفى عليه ما فى القلوب! ولا يكون فى القلوب إلا ما يلقى فيها ، أفيخفى عليه ماهو منه ؟!

قال الجنيد رحمه الله : قال لى ابرهيم الآجرى رحمه الله : ياغلام ، لأن ترد من همك إلى الله تعالى ذرة ، خير لك مما طلعت عليه الشمس

وقال الحسن بن على الدامغانى ، رحمه الله : عليكم بحفظ السرائر ، فإنه مطلع على الضمائر

وأهل المراقبة على ثلاثة أحوال فى مراقبتهم :

فأما ما قال الحسن بن على ، فهذا حال الابتداء فى المراقبة

وأما الحال الثانى فى المراقبة ، فكما حكى عن أحمد بن عطاء رحمه الله : أنه قال :

---

(١) الأحزاب : ٥٢
(٢) ق : ١٨
(٣) التوبة : ٧٨

خير كم من راقب الحق بالحق فى فناء ما دون الحق وتابع المصطفى صلم ، فى أفعاله وأخلاقه وآدابه

وأما الحال الثالث لحال الكبراء من أهل المراقبة : فإنهم يراقبون لله تعالى و يسألونه أن يرعاهم فيها ، لأن الله عز وجل قد خص نجباءه وخاصته بألا يكلهم فى جميع أحوالهم إلى أحد وهو الذى يتولى أمرهم فقال عز وجل :

« وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ » (١) .

وقال ابن عطاء ، رحمه الله ، لبعض حكماء خراسان ممن قد ولع بالجهل وقارن (٢) التقشف : أوَما علمت أن ما تقارن ببدنك أقذار فى جنب ماتطالع بقلبك؟ وما تطالعه بقلبك هباء فى جنب ماتراقب فى سرك ! فراقب الله تعالى فى سرك وعلانيتك ؛ فإنه خير مما تقارن من عملك وعبادتك

والمراقبة تقضى حال القرب ،

(١) الأعراف : ١٩٥

(٢) بمعنى صاحب ولازم

باب حال القرب

قال الشيخ ، رحمه الله : قال الله تعالى : « وإذَا سَألَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإنِّي قَرِيبٌ »[١] ، وقال : ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ »[٢] ، وقال : « ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُمْ ولْكِنْ لاَ تُبْصِرونَ »[٣] ، ثم قال فى صفة ملائكته : « أُولَائِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أقْرَبُ »[٤] ، الوسيلة يعنى القرب ، وقال : « ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْكُمْ ولْكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ »[٥] ، فذكر الله تعالى قربهم منه ، ثم ذكر قربهم بمعنى توسلهم إلى الله تعالى بالقرب أيهم أقرب .

وحال القرب : لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه فتقرب إلى الله تعالى بطاعته ، وجميع همه بين يدى الله تعالى بدوام ذكره فى علانيته وسره .

وهم على ثلاثة أحوال :

فنهم المتقربون إليه بأنواع الطاعات لعلمهم بعلم الله تعالى بهم وقربه منهم وقدرته عليهم .

ومنهم من تحقق بذلك ، كما قال عامر بن عبد القيس ، رحمه الله : ما نظرت إلى شىء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه منى .

وهو[٦] كما قال القائل :

وتحققتك فى السر فناجاك لسانى   فاجتمعنا لمعان وافترقنا لمعانى
إن يكن غيبك التعظيم عن لحظ عيانى   فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

---

(١) البقرة : ١٨٦
(٢) ق : ١٦
(٣) الواقعة : ٨٥
(٤) الإسراء : ٥٧
(٥) أى حال القرب

وقال الجنيد رحمه الله : واعلم أنه يقرب من قلوب عباده على حسب ما يرى من قرب قلوب عباده منه ، فانظر ماذا يقرب من قلبك ؟

وقال آخر : إن لله تعالى عبادا قربهم الله عز وجل بما هو به قريب منهم ، وكانوا قريبين منه بما هو به قريب إليهم ؛ وهذه الدرجة الثانية من حال القرب ،

فأما حال الكبراء وأهل النهايات : فهو على ما قال أبو الحسين النورى ، رحمه الله ، لرجل دخل عليه فقال : من أين أنت ؟ قال :من بغداد ، قال من صحبتَ بها قال : أبا حمزة ، قال : إذا رجعت إلى بغداد فقل لأبى حمزة : قرب القرب فى معنى مانحن نشير إليه : بعد البعد ،

وكما قال أبو يعقوب السوسى ، رحمه الله : ما دام العبد يكون بالقرب لم يكن قرب حتى يغيب عن القرب بالقرب ، فإذا ذهب عن رؤية القرب بالقرب فذلك قرب ، يعنى عن رؤية قربه من الله عز وجل بقرب الله منه ،

وحال القرب يقتضى حال المحبة وحال الخوف ،

باب حال المحبة

قال الشيخ ، رحمه الله : فأما حال المحبة فقد ذكر الله تعالى المحبة فى مواضع من كتابه ، فقال : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه »[١] وقال : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله »[٢] ، وقال فى موضع آخر : « يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله »[٣] .

فذكر فى الآية الأولى محبته قبل محبتهم ، وفى الآية الثانية ذكر محبتهم له ومحبته لهم ، وفى الآية الثالثة ذكر محبتهم له .

وحال المحبة : لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه ، ونظر بقلبه إلى قرب الله تعالى منه وعنايته به وحفظه وكلاءته له ، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق له من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله له ، فأحب الله عز وجل .

وأهل المحبة على ثلاثة أحوال :

فالحال الأول من المحبة : محبة العامة ، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم

وقد روى عن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، : أنه قال : « جبلت القلوب على حب من أحسن إليها و بغض من أساء إليها » الحديث .

وهذا الحال من المحبة شرطها ما سئل سمنون ، رحمه الله ، عن المحبة فقال : صفاء الود مع دوام الذكر ؛ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره

---

(١) المائدة : ٥٤
(٢) آل عمران : ٣١
(٣) البقرة : ١٦٥

وكما سئل سهل ابن عبد الله رحمه الله عن المحبة فقال : موافقة القلوب لله ؛ والتزام الموافقة لله ، واتباع الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، مع دوام الاستهتار[١] بذكر الله تعالى ووجود حلاوة المناجاة لله عز وجل .

وسئل الحسن بن على رضى الله عنه عن المحبة فقال : بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء .

وكما سئل بعض المشايخ عن المحبة فقال : استهتار[٢] القلوب بالثناء على المحبوب ، وإيثار طاعته ، والموافقة له كما قال القائل :

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

والحال الثانى من المحبة ، وهو يتولد من نظر القلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته ، وهو حب الصادقين والمتحققين .

وشرطها ووصفها كما حكى عن أبى الحسين النورى ، رحمه الله : أنه سئل عن المحبة فقال : هتك الأستار ، وكشف الأسرار .

وسئل أيضاً ، إبراهيم الخوّاص عن المحبة فقال : محو الإرادات ، واحتراق جميع الصفات والحاجات .

وقد سئل أبو سعيد الخراز ، رحمه الله ، عن المحبة فقال : طوبى لمن شرب كأساً من محبّته ، وذاق نعيماً من مناجاة الجليل وقربه بما وجد من اللذات بحبه فملىء قلبُه حبًّا وطار بالله طرباً ، وهام إليه اشتياقاً ؛ فياله من وامق أسف بربه ، كلف دنف ، ليس له سكن غيره ولا مألوف سواه .

وأما الحال الثالث من المحبة فهو محبة الصدّيقين والعارفين ، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة ، فكذلك أحبوه بلا علة .

---

(١) يقال : استهتر بالشيء إذا أولع به وشغف به .
(٢) استهتار القلوب بالثناء : شغفها وحبها له .

وصفة هذه المحبة ما سئل ذو النون المصرى ، فقيل له : ما المحبة الصافية التى لا كدرة فيها ؟ قال : حب الله الصافى الذى لا كدرة فيه : سقوط المحبة عن القلب والجوارح ، حتى لا يكون فيها المحبة ، وتكون الأشياء بالله ولله ، فذلك المحب لله .

وقال أبو يعقوب السوسى ، رحمه الله : لا تصح المحبة حتى يخرج من رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب : بفناء علم المحبة من حيث كان له المحبوب فى الغيب ، ولم يكن هو بالمحبة ، فإذا خرج المحب إلى هذه النسبة كان محبا من غير محبة .

وسئل الجنيد رحمه الله عن المحبة فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من
صفات المحب ، فهذا على معنى قوله : « حتى أُحِبَّهُ فإذا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ عَيْنَهُ التى ٣٢
يبصر بها وسمعه الذى يسمع به ، ويده التى يبطش بها » .

باب حال الخوف

قال الشيخ ، رحمه الله : فأما حال الخوف فإنما ذكرنا الخوف والمحبة ، لأن حال القرب يقتضى حالين :

فنهم من يغلب على قلبه الخوف من نظره إلى قرب الله منه ، ومنهم من يغلب على قلبة المحبة ، وذلك على حسب ما قسم الله للقلوب من التصديق وحقيقة اليقين والخشية ، وذلك من كشف الغيوب ؛ فإن شاهد قلبه فى قربه من سيده عظمته وهيبته وقدرته فيؤديه ذلك إلى الخوف والحياء والوجل ، وإن شاهد قلبه فى قربه لطف سيده وقديم عطفه وإحسانه له ومحبته أداه ذلك إلى المحبة والشوق والقلق والحرق ، والتبرم بالبقاء ؛ وذلك بعلمه ومشيئته وقدرته ، ذلك تقدير العزيز العليم .

والخوف على ثلاثة أوجه ، وقد ذكر الله تعالى الخوف وقرنه بالإيمان بقوله : « فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنتُم مُؤْمِنِينَ »[1] ، فهذا خوف الأجلة .

وقوله : « وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِهِ جَنَّتَانِ »[2] ، فهذا خوف الأوساط .

وقال : « يَخَافُونَ يَوماً تَتَقَلبُ فِيهِ القُلوبُ والأَبْصَارُ »[3] ، فهذا خوف العامة .

فنهم من خاف من سخطه وعقابه ، كما ذكر الله تعالى : «يخافونَ يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار » ، وهم العامة فخوفهم : اضطراب قلوبهم مما علموا من سطوة معبودهم

وأما الأوساط فخوفهم : من القطيعة واعتراض الكدورة فى صفاء المعرفة .

وسئل الشبلى رحمه الله عن الخوف فقال : تخاف ألا يسلمك إليك .

---

(١) آل عمران : ١٧٥

(٢) الرحمن : ٤٦

(٣) النور : ٣٧

كما قال أبو سعيد الخراز ، رحمه الله فى كلام له قال : شكوت إلى بعض العارفين الخوف فقال : لى ؛ إنى أشتهى أن أرى رجلا يدرى أيش الخوف من الله ؟ ثم قال : إن أكثر الخائفين خافوا على أنفسهم من الله شفقة منهم على أنفسهم ، وعملا فى خلاصها من أمر الله عز وجل .

وقال ابن خبيق ، رحمه الله : الخائف عندى : أن يكون بحكم الوقت : فوقت يخافه المخلوق ووقت يأمنه .

وقال القناد ، رحمه الله : علامة الخوف : أن لا يعلل نفسه بعسى وسوف .

وقال بعضهم: علامة خوف الله تعالى : هيجان القلوب ، وشدة الذعر من الترهيب؛

وقال ابن خبيق ، رحمه الله : الخائف عندى من يخاف من نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان .

وأما أهل الخصوص من الخائفين لخوفهم ، على ما قال سهل بن عبد الله ، رحمه الله ، لو قسم ذرة من خوف الخائفين على أهل الأرض لسعدوا بذلك أجمعين .

فقيل له : فكم يكون مع الخائفين من هذا الخوف ؟ قال مثل الجبل .

وقال ابن الجلاء الخائف عندى الذى لا يخاف غير الله تعالى .

وقال الواسطى ، رحمه الله : الأكابر يخافون القطع والأصاغر يخافو العقوبة وخوف الأكابر أقطع ، لأن ما دام للنفس فى النفس من رعوناتها بقية فليس بمحسن و إن أتى بكل تفويض وتسليم .

قال الشيخ ، رحمه الله : معنى رعوناتها : تدبيرها ودعواها ونظرها إلى طاعاتها .

والرجاء مقرون بالخوف .

باب حال الرجاء

قال الشيخ رحمه الله : والرجاء حال شريف ، قال الله ، تعالى :
« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر »[١]
وقال فى آية أخر .
« يرجون رحمته ويخافون عذابه »[٢] وقال فى آية أخرى :
« فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحداً »[٣]
قالوا فى التفسير : ثواب ربه .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لا عتدلا » .

وقال بعضهم : الخوف والرجاء جناحا العمل لا يطير إلا بهما .

وقال أبو بكر الوراق : الرجاء ترويح من الله تعالى لقلوب الخائفين ، ولولا ذلك لتلفت نفوسهم وذهلت عقولهم .

والرجاء على ثلاثة أقسام :

رجاء فى الله .

ورجاء فى سعة رحمة الله .

ورجاء فى ثواب الله .

فالرجاء فى ثواب الله وفى سعة رحمته : لعبد مريد قد سمع من الله ذكر المنن ، فرجاه ، وعلم أن الكرم والفضل والجود من صفات الله فارتاح قلبه إلى المرجو من كرمه وفضله .

---

(١) الأحزاب : ٢١
(٢) الإسراء : ٥٧
(٣) الكهف: ١١٠

وكما حكى عن ذو النون المصرى ، رحمه الله : أنه كان يدعو ويقول : اللهم إن سعة رحمتك أرجأ لنا من أعمالنا عندنا ، واعتمادنا على عفوك أرجأ عندنا من عقابك لنا .

وكما قال بعضهم : الٰهى أنت لطيف لمن قصدك فى إرادته ، ورجاك فى ملماته ، فيا منتهى آمال الراجين أرجِنا راحة عاجلة توردنا مناهل مسرتك وتؤدينا إلى قربك

والراجى فى الله تعالى : هو عبد تحقق فى الرجاء ، فلا يرجو من الله شيئاً سوى الله

كما سئل الشبلى رحمه الله عن الرجاء فقال : الرجاء أن ترجوه أن لا يقطع بك دونه.

وقال ذو النون ، رحمه الله : بينا أنا أسير فى بعض البوادى إذ لقيتنى امرأة فقالت : لى من أنت ؟ قلت : رجل غريب ، فقالت : وهل يوجد مع الله تعالى أحزان الغربة .

* * *

فصل فى معنى الخوف والرجاء

قال الشيخ ، رحمه الله : وأما لسان أهل النهايات والمتحققين فى الخوف والرجاء : فالذى يقول أحمد بن عطاء ، رحمه الله ، حين سئل عن الخوف والرجاء فقال : إن الخلق بالرجاء والخوف مؤذنون ، وما دام لم يترق العبد فى طرقهما ، ولم يترق من بينهما ، لم يصل إلى حقيقة حقهما ؛ ويكون مرتبطاً بما لا حاصل له فيهما عند الحقيقة .

قيل : فما هما ؟ يعنى الخوف والرجاء قال : زمامان للنفس حتى لا تخرج إلى رعوناتها : من الإدلال والأمن ، والإياس والقنط.

وقال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله : الخوف له ظلَم يتحير صاحبه تحته يطلب أبداً المخرج منه ، فإذا جاء الرجاء بضيائه خرج إلى مواضع الراحة فغلب عليه التمنى ، ولا ينفع حسن النهار إلا بظلمة الليل ، وفيهما صلاح السكون ، فكذلك القلب : مرة فى ظلم الخوف أسير ، فإذا طرق طوارق الرجاء فهو أمير .

والمحبة والخوف والرجاء مقرون بعضها ببعض .

وقال بعضهم : كل محبة لا خوف معها فهى مأوفة ، وكل خوف لا رجاء معه فهو مأوف ، وكل رجاء لا خوف معه كذلك .

والرجاء والمحبة يقتضيان الشوق .

باب حال الشوق

قال الشيخ ، رحمه الله تعالى : وحال الشوق حال شريف ، رُوى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : أنه قال :

«ألاهل مشتاق إلى الجنة ؟ هي ورب الكعبة ريحانة تهتز ، ونهر مطرد ، وزوجة ٣٣
حسناء » وروى عنه ، عليه السلام أنه كان يقول : فى دعائه :

« أسئلك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك » ٣٤

ولذة النظر إلى وجه الله تعالى فى الآخرة والشدق إلى لقآئه فى الدنيا

وقد روى ، أيضا : « من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات » ٣٥

وقد روى أيضاً : «اشتاقت الجنة إلى على ثلاثة : إلى على وعمار وسلمان رضى الله ٣٦
عنهم أجمعين »

والشوق : هو لعبد قد تبرم ببقائه شوقاً إلى لقاء محبو به

وسئل بعضهم عن الشوق فقال : هيان القلب عند ذكر المحبوب ،

وقال آخر الشوق : نار الله تعالى أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والأرادات والعوارض والحاجات ،

وقال الجريرى ، رحمه الله تعالى : لولا أن فى الشوق متعة ماحمل الضر ،

وقال أبو سعيد الخراز رحمه الله : ملئت قلوبهم عن المحبة فطاروا بالله عزوجل طرباً ، وهاموا إليه اشتياقاً ؛ فيا لهم من قلق مشتاق أسف بربه كلف دنف ليس لهم سكن غيره ولا مألوف سواه ! ! !

وأهل الشوق على ثلاثة أحوال :

فنهم من اشتقاق إلى ما وعد الله تعالى لأوليائه من الثواب والكرامة ، والفضل والرضوان

ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته وتبرمه ببقائه شوقاً إلى لقائه

ومنهم من شاهد قرب سيده أنه حاضر لا يغيب ، فينعم قلبه بذكره وقال : إنما يشتاق إلى غائب وهو حاضر لا يغب ، فذهب بالشوق عن رؤية الشوق ، فهو مشتاق بلا شوق ، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق ، وهو لا يصف نفسه بالشوق ، والشوق يقتضى الأنس .

باب حال الأنس

قال الشيخ ، رحمه الله تعالى : ومعنى الأنس بالله تعالى : الاعتماد عليه، والسكون إليه ولاستعانة به ، ولايتهيأ أن يعبر عنه بأكثر من هذا ،

وقد روى فى الخبر : أن مطرف بن عبد الله بن الشخير ، رحمه الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز ، رضى الله عنه : ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ؛ فإن لله تعالى عبادا استأنسوا بالله فكانوا فى وحدتهم أشد استئناساً من الناس فى كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس مايكونون ، وآنس ما يكون الناس أوحش مايكونون

ومطرف بن عبدالله من كبار التابعين ، وكذلك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه من الأئمة الراشدين

وذكر عن بعض العارفين : أنه قال : إن لله عز وجل عبادا أرادهم بحق حقائق الأنس به فأخذهم به عن وجد طعم الخوف مما سواه ،

والأنس بالله : لعبد قد كملت طهارته وصفا ذكره واستوحش من كل ما يشغله عن الله تعالى ، فعند ذلك آنسه الله تعالى به ،

وأهل الأنس فى الأنس على ثلاثة أحوال :

فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة ، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب كما حكى عن سهل بن عبد الله ، رحمه الله أنه قال :

أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح[١] بالعمل لله خالصا ، فيأنس العبد بالله أى يسكن إليه ،

والحال الثانى من الأنس : فهو لعبد قد استانس بالله واستوحش مما سواه من العواض والخواطر المشغلة

---

(١) وفى رواية أخرى بالعلم

كما ذكر عن ذى النون ، رحمه الله ، أنه قيل له :

ماعلامة الأنس بالله ؟ قال : إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه هو ذايوحشك من نفس ، و إذا رأيته يوحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه

وسئل الجنيد رحمه الله ، عن الأنس بالله فقال : ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة ،

وقال ابرهيم المارستانى ، رحمه الله ، وسئل عن الأنس ، قال: فرح القلب بالمحبوب

والحال الثالث من الأنس : هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس

كما ذكر عن بعض أهل المعرفة أنه قال : إن لله عبادا أوجد لهم من الهيبة له ما أخذهم به عن الأنس بغيره ،

وهذا كما ذكر عن ذى النون ، رحمه الله : أن رجلا كتب إليه : آنسك الله بقربه . فكتب ، إليه ذو النون : أوحشك الله من قربه ، فإنه إذا آنسك بقربه فهو قدرك ، و إذا أوحشك من قربه فهو قدره . معنى قوله : أوحشك من قربه . يعنى بأن يوجدك هيبة قربه .

وسئل الشبلى رحمه الله عن الأنس فقال : وحشتك منك ومن نفسك ومن السكون ،

والأنس بالله اقتضى الطمأنينة .

باب حال الطمأنينة

قال الشيخ رحمه الله : وقد قال الله تعالى : « يَأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (١) » وفى التفسير : المطمئنة بالإيمان .

وقال عز وجل : « ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلوبُ (٢) »

وقال فى قصة إبراهيم عليه السلام : « وَلَـٰكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٣) »

وقال سهل بن عبد الله رحمه الله ، إذا سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه ، قَوِيَتْ حال العبد فإذا قويت أنس بالعبد كل شىء .

وسئل الحسن بن على الدامغانى رحمه الله ، عن قوله عز وجل : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ (٤) » فقال : إن القلوبَ هشت و بشت وسكنت واستأنست ثم كشف عنه ، قال : هشت من معرفة جلال الله تعالى ، وعظمته ، و بشت من معرفة رحمة الله وفضله ، وسكنت من معرفة كفاية الله وصدقه ، واستأنست من معرفة إحسان الله ولطفه .

قال : وسئل الشبلى رحمه الله عن معنى قول أبى سليمان الدارانى رحمه الله : النفس إذا أحرزت قوتها اطمأنت ؟ فقال : إذا عرفت من يقوتها اطمأنت .

والطمأنينة : حال رفيع ، وهى لعبد رجح عقله ، وقوى إيمانه ورسخ علمه ، وصفا ذكره وثبتت حقيقته

وهى على ثلاثة ضروب :

---

(١) الفجر : ٢٧
(٢) الرعد : ٢٨
(٣) البقرة : ٢٦٠
(٤) الرعد : ٢٨

فضرب منها للعامة ، لأنهم إذا ذكروه اطمأنوا إلى ذكرهم له ، فحظهم منه : الإجابة الدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات ، وهو ما قال الله عز وجل : « النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (١) » يعنى بالإيمان بأن لا دافع ولا مانع إلا الله .

قال : والضرب الثانى : للخصوص ، لأنهم رضوا بقضائه وصبروا على بلائه ، وأخلصوا ، واتقوا ، وسكنوا ، واطمأنوا إلى قوله عزّ وجلّ : « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (٢) » ، « إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٣) » فاطمأنوا وسكنوا إلى قوله : « مع » فكانت طمأنينتهم ممزوجة برؤية طاعتهم .

والضرب الثالث : لخصوص الخصوص : علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه ، ولا تسكن معه ، هيبة وتعظيما؛ لإنه ليس له غاية تدرك ، « وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » « وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤) » ، فمن كانت له الأشياء فى سره كذلك فإلى ماذا يطمئن أو يسكن قلبه ؟ ومن وقع فى عطش التمنى فى طلب الزيادة وقع فى البحر الذى لا تجرى فيه الأوهام ، وهذا كلام قد اختصرته من كلام الواسطى .

والطمأنينة تقتضى حال المشاهدة

---

(١) الفجر : ٢٧ (٢) النحل : ١٢٨ (٣) الرعد : ٤٦ (٤) الإخلاص : ٤

باب حال المشاهدة

قال الشيخ ، رحمه الله : وقد قال الله تعالى : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[(١)] » يعني حاضر القلب .

وقال ، أيضاً : « وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ[(٢)] »

وقال أبو بكر الواسطي ، رحمه الله : فالشاهد الرب والمشهود الكون : أعدمهم ثم أوجدهم .

وقال أبو سعيد الخراز ، رحمه الله : فمن شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه ، وتلاشى كل شيء وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ، ولم يبق في القلب إلا الله ، عز وجل .

وقال عمرو بن عثمان المكي رحمه الله : المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب ولا يجعلها عياناً ولا يجعلها وجداً .

وقال ، أيضاً : المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان ، لأن رؤية القلوب عند كشف اليقين في زيادة توهم .

٣٧ وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام ، لعبد الله بن عمر ، رضي الله عنه : « اعْبُدِ الله كأنك تراه » الحديث .

وأما قوله عز وجل : « وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ[(٣)] » فقالوا : هو مشاهدة الأشياء بعين العبر ، ومعاينتها بأعين الفكر .

وقال عمرو المكي رحمه الله : المشاهدة يعني المحاضرة ، يعني المداناة ، كما ذكر الله ، عز وجل : « وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ[(٤)] » يعني قريبة من البحر .

---

(١) ق : ٣٧ (٢) البروج : ٣ (٣) سبأ : ٤٧ (٤) الأعراف : ١٦٣

وقال عمرو المكى ، رحمه الله : المشاهدة : زوائد اليقين ، سطعت بكواشف الحضور ، غير خارجة من تغطية القلب .

وقال ، أيضاً : المشاهدة : حضور بمعنى قرب ، مقرون بعلم اليقين وحقائقها .

وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال :

فالأول منها : الأصاغر ، وهم المريدون ، وهو ما قال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله : يشاهدون الأشياء بعين العبر ، ويشاهدونها بأعين الفكر .

والحال الثانى من المشاهدة : الأوساط ، وهو الذى أشار إليه أبو سعيد الخراز ، رحمه الله ، حيث يقول :

الخلق فى قبضة الحق وفى ملكه ، فإذا وقعت المشاهدة فيما بين الله و بين العبد لا يبقى فى سره ولا فى وهمه غير الله تعالى .

والحال الثالث من المشاهدة : ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكى ، رحمه الله ، فى كتاب المشاهدة ، فقال : إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت ، فشاهدوه بكل شىء ، وشاهدوا كل الكائنات به ، فكانت مشاهدتهم لديه ولهم به ، فكانوا غائبين حاضرين ، وحاضرين غائبين ، على انفراد الحق فى الغيبة والحضور ، فشاهدوه ظاهراً و باطناً ، و باطناً وظاهراً ، وآخراً أولاً ، وأولاً آخراً ، كما قال ، عزّ وجلّ : « هوَ الأوّلُ والآخرُ ، وَالظاهرُ والباطنُ ، وهوَ بِكلّ شىْءٍ عَليمٌ »[1] .

والمشاهدة : حال رفيع وهى من لوائح زيادات حقائق اليقين .

وتقتضى حال اليقين .

(١) الحديد : ٣

باب حال اليقين

قال الشيخ ، رحمه الله : وقد ذكر الله تعالى اليقين فى مواضع من كتابه على ثلاثة أوجه : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين .

٣٨ وقال النبي ، صلى الله عليه وسلم : « سلوا الله تعالى العفو والعافية واليقين فى الدنيا
٣٩ والآخرة » وقال ، صلى الله عليه وسلم « رحم الله أخى عيسى ، عليه السلام لو ازداد يقينا لمشى فى الهواء » .

وقال عامر بن عبد قيس ، رحمه الله : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، يعنى عند معاينتى لما آمنت به من الغيب ، وهذا كلام غلبات ووجد وتحقق

٤٠ وقد روى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « الخلق يبعثون على ما يموتون
٤١ عليه » ولا يكون الخبر كالمعاينة فى جميع معانيها ، ويجوز أن يكون له وجه آخر ، وهو أن يعنى : ما ازددت علم يقين .

وقال أبو يعقوب النهر جورى ، رحمه الله : إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاء عنده نعمة ؛ والرخاء مصيبة

واليقين هو المكاشفة .

والمكاشفة على ثلاثة أوجه :

مكاشفة العيان بالأبصار يوم القيامة .

ومكاشفة القلوب بحقائق الإيمان بمباشرة اليقين بلا كيف ولا حد .

والحالة الثالثة : مكاشفة الآيات بإظهار القدرة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بالمعجزات ، ولغيرهم بالكرامات والإجابات .

واليقين : حال رفيع ، وأهل اليقين على ثلاثة أحوال :

فالأول : الأصاغر ، وهم المريدون ، والعموم[1] .

(١) فى رواية أخرى : والعوام .

وهو كما قال بعضهم : أول مقام اليقين : الثقة بما فى يد الله تعالى . والإياس مما فى أيدى الناس .

وهو ما قال الجنيد ، رحمه الله ، حيث سئل عن اليقين ، فقال : اليقين ارتفاع الشك .

وقال أبو يعقوب : إذا وجد العبد الرضا بما قسم الله له فقد تكامل فيه اليقين .

وسئل رُوَيم بن أحمد ، رحمه الله ، عن اليقين ، فقال : تحقيق القلب بالمعنى على ما هو به .

والثانى الأوساط وهم الخصوص ، وهو ما سئل ابن عطاء عن اليقين ، فقال : ما زالت فيه المعارضات على دوام الأوقات .

وكما قال أبو يعقوب النهرجورى ، رحمه الله : العبد إذا تحقق باليقين ترحّل من يقين إلى يقين حتى يصير اليقين له وطناً .

وسئل أبو الحسين النورى ، رحمه الله ، عن اليقين ، فقال : اليقين : المشاهدة ، ومعنى المشاهدة قد ذكرناه .

والثالث : الأكابر ، وهم خصوص الخصوص ، وهو ما قال عمرو بن عثمان المكى ، رحمه الله : اليقين ، فى جملته : تحقيق الإثبات لله عز وجل بكل صفاته .

وقال : حد اليقين : دوام انتصاب القلوب لله عز وجل بما أورد عليها اليقين من حركات ما لاق به الإلمام .

وقال أبو يعقوب : لا يستحق العبد اليقين حتى يقطع عن كلّ سبب حال بينه وبين الله تعالى ، من العرش إلى الثرى ، حتى يكون الله لا غير ، ويؤثر الله تعالى ، على كل شىء سواه ، وليس لزيادات اليقين نهاية ؛ كلما تفهّموا وتفقّهوا فى الدين ازدادوا يقيناً على يقين .

واليقين أصل جميع الأحوال وإليه تنتهى جميع الأحوال ، وهو آخر الأحوال ، وباطن جميع الأحوال ، وجميع الأحوال ظاهر اليقين ، ونهاية اليقين : تحقيق

التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب ، ونهاية اليقين : الاستبشار ، وحلاوة المناجاة ، وصفاء النظر إلى الله تعالى ، بمشاهدة القلوب بحقائق اليقين بإزالة العِلَل ومعارضة التهم .

قال الله تعالى : « إنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ »[1] ، « وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ »[2] .

وقال الواسطى ، رحمه الله :

إذا أيقن بالمعنى وقع له مشاهدة الأحوال ، وإذا انكشف له حقائق المعنى خرج من أشجان الخلق ، خاطبهم بالتقريب ، وهو الكشف من الصديقية ، وخاطبهم الله تعالى ، بالمشاهدة فقال :

« والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ »[3] ، الشهداء باعوه نفوسهم ، والصالحون الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

(١) الحجر : ٧٥ (٢) الذاريات : ٢٠ (٣) النساء : ٦٩

كتاب أهل الصفوة

فى الفهم والاتباع لكتاب الله عز وجل

باب الموافقة لكتاب الله تعالى

قال الشيخ ، رحمه الله : قال الله عز وجل : « هُوَ الذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ[1] » ، وقال : « وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ »[2] ، وقال :
٤٢ « يس وَالقرآنِ الحَكِيمِ »[3] ، وقال : « حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ »[4] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « القرآن حبلُ الله المتين لا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، من قال به صدق ، ومن عمل به رشد ، ومن حكم به عدل ، ومن اعتصم به هُدِىَ » .

٤٣ ورُوى عن عبد الله بن مسعود ، رضى الله عنه ، أنه قال : « من أراد العلم فليثوِّر القرآن ؛ فإن فيه علم الأولين ، والآخرين » ، وقد قال الله تعالى : « الم ، ذَلِكَ الكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ، الذِين يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ[5] » .

فعلم أهل العلم بهذا الخطاب أن فى كتاب الله الذى أُنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو القرآن الذى لا شك فيه لأحدٍ من المؤمنين أنه من عند الله ، أن

---

(١) آل عمران : ٧ (٢) الإسراء : ٨٢ (٣) يس : ٢
(٤) القمر : ٥ (٥) البقرة : ١

فيه هـدًى و بياناً لهم فى جميع ما أشكل عليهم من أحكام الدين ، بعد إيمانهم بالغيب ، وهو التصديق بما أخبرهم الله به عما غاب عن أعينهم .

ثم قال ، فى آية أخرى « وَنَزَّلنَا عَلَيْكَ الـكِتَابَ تِبْيَاناً لـكلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ[١] » .

فأفادت هذه الآية لأهل الفهم من أهل العلم ، بعد إيمانهم بالغيب أيضاً ، أن تحت كل حرف من كتاب الله تعالى كثيراً من الفهم مذخوراً لأهله على مقـدار ما قُسم لهم من ذلك ، واستدلوا على ذلك بآيات من القرآن ، مثل قوله عز وجل : «مَا فَرَّطْنَا[٢] فِى الـكِتَابِ مِنْ شىْءٍ » ، وقوله : « وكلَّ شَىْءٍ أحْصيْنَاهُ فى إمَامٍ مُبِينٍ »[٣] ، وقوله : « وَإنْ مِنْ شَىْءٍ إلا عِنْدَنا خزَائنُه ، ومَا نُنزِّلُه إلا بِقَدَرٍ مَعلوم »[٤] .

وقالوا فى معنى قوله عز وجل : « مِنْ شَىْءٍ » إن معناه : من شىء من عِلم الدين ، وعلم الأحوال التى بين الخلق و بين الله تعالى وغير ذلك .

وقال عز وجل ، فى آية أخرى : « إنَّ هذا القرآن يَهدِى لِلتى هى أقْوَم »[٥] يعنى يدلُّ إلى الذى هو أصوب ، فعلم أهل الفهم من أهل العلم أن لا سبيل إلى التعلق بالأصوب مما يهدى إليه القرآن إلا بالتدبر ، والتفـكر ، والتيقظ ، والتذكر وحضور القلب عنـد تلاوته ، وعلموا ذلك أيضاً ، بقوله : « كِتَابٌ أنزَلْنَاهُ إليكَ مُبارَكٌ ليَدَّبَّرُوا آياتِه وليتذكَّرُ أُولُوا الألباب »[٦] .

ثم استفاد أهل الفهم من هذه الآية ، أيضاً أن التدبر ، والتفـكر ، والتذكر

(١) النحل : ٨٩ (٢) الأنعام : ٣٨ (٣) يس : ١٢
(٤) الحجر : ٢١ (٥) الإسراء : ٩
(٦) ص : ٢٩

لا وصول إليه إلا بحضور القلب ، لقول الله عز وجل : « إنَّ في ذلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ[1] » يعني حاضر القلب .

ثم لم يترك على ذلك حتى ذكر القلب في آية أخرى فقال : « يومَ لاينفعُ مالٌ ولابنون . إلا من أتى الله بقلب سليم[2] » .

ثم لم يترك على ذلك حتى أقام إماماً للخلق في القلب السليم ، فقال عز وجل : « وإنَّ من شيعته لإبراهيمَ ، إذ جاء ربه بقلب سليم[3] » قال أهل الفهم : القلب السليم الذي ليس فيه غير الله ، عز وجل .

وقال سهل بن عبدالله ، رحمه الله : لو أعطِيَ العبدُ لكل حرف من القرآن ألف فهم لما بلغ نهاية ما جعل الله تعالى في آية من كتاب الله تعالى من الفهم ، لأنه كلام الله تعالى ، وكلامه صفته .

وكما أنه ليس لله نهاية فكذلك لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهمون على مقدار مايفتح الله تعالى على قلوب أوليائه من فهم كلامه ، وكلام الله غير مخلوق فلا تبلغ إلى نهاية الفهم فيه فهومُ الخلق ، لأنها محدثة مخلوقة .

وقد ذكر الله تعالى الهداية في القرآن قوله : « هُدًى للمُتقِينَ[4] » .

(١) ق : ٣٧
(٢) الشعراء : ٨٨ ــ ٨٩
(٣) الصافات : ٨٣ ــ ٨٤
(٤) البقرة : ٢

باب فى تخصيص الدعوة
ووجه الاصطفاء

قال سهل بن عبد الله رحمه الله : الدعوة عامة ، والهداية خاصه ، وأشار إلى قوله تعالى : « والله يَدْعُو إلى دارِ السَّلْمِ ، وَيَهْدِى مَنْ يَشَاء إلى صِرَاط مُسْتَقِيم[(١)] » ، لأن الدعوة عامة ، والهداية مختصة على تفاضلها ، لأنه رد المشيئة فى باب الهداية إليه ، فكان الذين اختارهم وأحبهم واصطفاهم دون من دعاهم .

وقد ذكر الله تعالى الاصطفاء أيضاً ، فى مواضع من كتابه ، فقال فى موضع : « قلِ الحَمْدُ لله وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الذينَ اصطفى ، آلله خيرٌ أما يشركونَ[(٢)] » .

فأشار بالسلام إلى عباد قد اصطفاهم واجتباهم ، ولم يبين من هم ؟ وكيف هم ؟

ثم لم يترك على ذلك وقال فى آية أخرى : « الله يصطفى منَ الملائكةِ رُسلا ومن الناسِ[(٣)] »

قال المفسرون : « ومنَ الناس » يعنى به الأنبياء ، فلو ترك على هذا أيضاً لكان للقائل أن يقول : إن الاصطفاء لايجوز إلا للأنبياء ، فقال : « ثم أورثنا الكتَابَ الذينَ اصطفينَاَ منْ عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ومنهمْ مقتصدٌ ، ومنهمْ سابقٌ بالخيراتِ[(٤)] » .

ففرق بين الاصطفاء الذى ذكر للرسل ، عليهم السلام والاصطفاء الذى ذكر لعباده الذين أورثهم الكتاب ، وهم المؤمنون ، ثم بين أنهم متفاوتون أيضاً فى أحوالهم

---

(١) يونس : ٢٥
(٢) النمل : ٥٩
(٣) الحج : ٧٥
(٤) فاطر : ٣٢

التى بينهم و بين الله تعالى : « فمنهمْ ظالمٌ لنفسه » الآية ، فوقع الاصطفاء على وجهين :

اصطفاء الأنبياء عليهم السلام بالعصمة ، والتأييد ، والوحى ، وتبليغ الرسالة ، ولسائرهم من المؤمنين : الاصطفاء بصفاء المعاملة وحسن المجاهدة والتعلق بالحقائق والمنازلة .

ثم قال عز وجل : « لكلٍّ جعلنا منكم شرْعة ومنهاجاً[1] » .

وقال تعالى : « لو شاء اللهُ لجعلكم أمةً واحدةً ولٰكن ليبلوَكم فيما آتاكم فاستبِقوا الخيراتِ[2] » .

فأمرهم الله تعالى بالاستباق ، والمسارعة والمبادرة إلى الخيرات مجملا ، ولم يبين أيْشَ الخيرات التى أمرهم بالاستباق إليها ؛ ثم فصل و بين مواضع كثيرة كقوله :

« وهدًى للمتقين[3] » ، « وموْعظةً للمتقين[4] » ، « و إيَّاىَ فاتقون[5] » ، « و إيَّاىَ فارْهبون[6] » ، « فلا تخافوهُمْ وخافون[7] » ، « فلا تخشوهُمْ واخشون[8] » ، «فاذكرونى أذْكرْكم[9] » ، «وعلى الله فتوكَّلوا[10] » ، «وأطيعوا الله وأطيعوا الرسُول[11] » ، « والذين جاهدوا فينا[12] » ، « ومن شكر فإنما يشكر لنفسه[13] » ، « والله يحبُّ الصابرينَ[14] » ، « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين[15] » .

(١) المائدة : ٤٨ (٢) المائدة : ٤٨ (٣) البقرة : ٢
(٤) البقرة : ٦٦ (٥) البقرة : ٤١ (٦) البقرة : ٤٠
(٧) آل عمران : ٧٥ (٨) البقرة : ١٤٥ (٩) البقرة : ١٥٢
(١٠) المائدة : ٢٣ (١١) المائدة : ٩٢ (١٢) العنكبوت : ٦٩
(١٣) النمل : ٤٠ (١٤) آل عمران:١٤٦ (١٥) البينة : ٥

وقال : « رجالٌ صدقوا عاهدوا الله عليه[١] » ، ثم ذكر : القانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات .

وذكر فى آيات من القرآن : التوبة ، والإنابة، والتفويض ، والرضا ، والتسليم ، والقناعة ، وترك الاختيار .

ثم قال : « قل متاعُ الدنيا قليلٌ والآخرة خيرةُ خيرٌ لمن اتقى[٢] » .

وقال : « ذلك متاع الحياةِ الدنيا ، والله عنده حسنُ المآبِ[٣] » ، « وما الحياةُ الدنيا إلا لعبٌ ولهوٌ[٤] » ، « وما حيـاةُ الدنيا إلا متاعُ الغرور[٥] » ، ثم قال : « من كان يريد حرثَ الآخرة نزد له فى حرثه ومنْ كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة منْ نصيب[٦] » .

ثم ذكر الشيطان فقال : « إنّ الشيطانَ لكم عدوٌ فاتخذوه عـدواً[٧] » ، وقال : « أفرأيتَ من اتخذ إليه هواه وأضلهُ الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل الله على بصره غشاوة[٨] » ، وقال : « فأما من طغى وآثر الحيـاة الدنيا[٩] » الآية .

وما يشبه ذلك من الآيات التى ندب الله تعالى الخلق إلى المسارعة والاستباق إلى التعلق والخلق بها ، والصدق والإخلاص فيها كثيرة ؛ والمؤمنون فى قبول ذلك متساوون ، وفى منازلتها وركوب حقائقها متفاوتون ، والجميع مخاطبون .

وهم على ثلاث درجات .

---

(١) الإحزاب : ٢١ (٢) النسـاء : ٧٧ (٣) آل عمران : ١٤
(٤) الأنعام : ٣٢ (٥) الحديد : ٢٠ (٦) الشورى : ٢٠
(٧) فاطر : ٦ (٨) الجاثية : ٢٣ (٩) النازعات : ٢٧ –٢٨

باب ذكر تفاوت المستمعين

خطاب الله تعالى ودرجاتهم فى قبول الخطاب

قال الشيخ ، رحمه الله : فمنهم من سمع الخطاب ، وقبله ، وأقر به ، وتعرض لما خوطب به من هذه الآيات البينات التى ذكرناها ، والتى لم نذكرها فيما يشبه ذلك وحال بينه و بين العمل بها والانتفاع بما وعدهم الله تعالى من الثواب عليها ، الاشتغال بالدنيا والغفلة ومتابعة النفس ، واختيار ، الحظوظ على الحقوق ، والإجابة لدواعى العدو ، والميل إلى أمارات الهوى والشهوات ؛ وهم الذين وصفهم الله تعالى فى كتابه وزجرهم وو بخهم ، حيث يقول :

« أفرأيتَ من اتخذ إلهه هواهُ وأضلهُ الله على علم[(١)] » وقال : « ولا تطع من من أغفلنا قلبهُ عن ذكرنا واتبعَ هواه[(٢)] »، وقال : « خذ العفو وامرْ بالعُرْف[(٣)] » وقال :« زُين للناسِ حبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب »[(٤)] ، ثم قال ، عز وجل : « قل أؤُنبئكم بخير منْ ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزوج مطهرة ورضوان من الله والله بصيرٌ بالعباد »[(٥)] .

ومنهم من سمع الخطاب ، فأجاب ، وتاب ، وأناب ، وعمل فى الطاعات ، وتحقق فى الأحوال والمنازلات ، وصدق فى المعاملات ، وأخلص فى المقامات ؛ وهم الذين ذكرهم الله تعالى فى كتابه ، وذكر ما أعد الله لهم ، فقال :

---

(١) الجاثية : ٢٣ (٢) الكهف : ٢٨ (٣) الأعراف : ١٩٩
(٤) آل عمران : ١٤ (٥) آل عمران : ١٥

« الذين يقيمون الصلاة ويؤتونَ الزكاة وهمْ بالآخرة هم يوقنون أولائك على هدى من ربهم[١] » ، وقال : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزولا[٢] » ، وقال : « من عملَ صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنُحْيِيَنَّهُ حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون[٣] » .

قالوا : الحياة الطيبة : هى الرضا والقناعة بالله عز وجل .

ثم قال : « قد أفلحَ المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعونَ ، والذين هم عن اللغوِ معرضون[٤] » الآية .

وقال عمرو المكى رحمه الله : فكل شىء غير الله مما وقع فى القلوب فهو لغوٌ ، فأخبر أن الموحدين عن كل شىء غير الله معرضون ، ثم قال : « أولئك همُ الوارثون الذينَ يرثون الفردوس هم فيها خالدون[٥] » .

وذكرهم فى القرآن كثير ، وقد فضلهم على غيرهم بذكره لهم ووعده إياهم بالثواب الجزيل .

والطبقة الثالثة من المخاطبين : هم الذين ذكرهم الله تعالى ، وشرفهم بذكره لهم ، ونسبهم إلى العلم والخشية فقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء[٦] » .

وقال : « وأولوا العلم قائماً بالقسط[٧] » ، وقال : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون[٨] » .

ثم خص من هؤلاء قوماً أيضاً ، فقال : «والراسخون فى العلم[٩]» زاد فى وصفهم الذى شرفهم به ، معنى آخر :

---

(١) النمل : ٣
(٢) الكهف : ١٠٧
(٣) النحل : ٩٧
(٤) المؤمنون : ١ ـ ٢
(٥) المؤمنون : ١٠ ـ ١١
(٦) فاطر : ٢٨
(٧) آل عمران : ١٨

قال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله : الراسخون فى العلم : هم الذين رسخوا بأرواحهم فى غيب الغيب ، وفى سر السر ، فعرّفهم ماعرفهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات مالم يرد من غيرهم ، وخاضوا بحر العلم بالفهم ، لطلب الزيادات ، فانكشف لهم من مذخور الخزائن والمخزون تحت كل حرف وآية من الفهم وعجائب النص ، فاستخرجوا الدر والجواهر ، ونطقوا بالحكم .

ومنهم من كانت البحار عنده كتفلة فيما شاهد من المستأثرات ، يعنى مستأثرات العلم الذى استأثر الله تعالى به أنبياء ، وخص بذلك أولياءه وأصفياءه ، فغاص بسره عند صفاء ذكره وحضور قلبه فى بحار الفهم ، فوقع على الجوهر العظيم ، وهو الذى علم مصادر الكلام من أين ، فوقع على العين ، فأغناهم عن البحث والطلب والتفتيش .

وهذا شرح من كلام الواسطى فيما ذكر و بيان ماقال الواسطى فى كلام ذكر ذلك عن أبى سعيد الخراز فى معنى ذلك .

قال أبو سعيد ، رحمه الله : أول الفهم لكتاب الله عز وجل : العمل به : لأن فيه العلم ، والفهم ، والاستنباط ؛ وأول الفهم إلقاء السمع والشاهدة ، لقول الله ، عزوجل: « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيدٌ[(١)] » وقال تعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه[(٢)] » .

والقرآن كله حسن ، ومعنى اتباع الأحس ما يكشف للقلوب من العجائب عند الاستماع و إلقاء السمع من طريق الفهم والاستنباط .

---

(١) ق : ٣٧ (٢) الزمر : ١٨

باب فى شرح استنباط إلقاء السمع والحضور بالتدبر عند التلاوة وفهم الخطاب بما خوطب به العبد

قال الشيخ ، رحمه الله : واعلم أن إلقاء السمع والحضور عند الاستماع على ثلاثة أوجه :

قال أبو سعيد الخراز ، رحمه الله ، فيما بلغنى عنه : أول إلقاء السمع لاستماع القرآن هو أن تسمعه كأن النبي صلى الله عليه وسلم يقرأه عليك ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من جبريل عليه السلام وقراءته على النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لقول الله ، عز وجل : « وإنهُ لَتنزيلُ رَبِ العَالَمينَ ، نَزَلَ بهِ الرُّوحُ الأَمِينُ علَى قَلبِكَ . . . »(١) الآية ، ثم ترقى عن ذلك فكأنك تسمعه من الحق ، وذلك قول الله ، عز وجل : « وننزلُ مِنَ القرآنِ ما هُوَ شِفاء ورَحْمةٌ للمؤمِنينَ »(٢) وقوله : « تنزِيلُ الكتَابِ مِنَ اللهِ العزِيزِ الحكِيمِ »(٣) فكأنك تسمعه من الله ، تعالى ، وكذلك : « حم تَنزِيلُ الكتَابِ مِنَ اللهِ العزِيزِ العلِيمِ »(٤)

ومخرج الفهم فى استماعك من الله تعالى : عند حضور قلبك وغيبتك عن أشغال الدنيا وعن نفسك بقوة المشاهدة ، وصفاء الذكر ، وجمع الهم ، وحسن الأدب ، وطهارة السر ، وصدق التحقيق ، وقوة دعائم التصديق ، والخروج إلى السعة من الضيق ، وحضور المشاهدة لنفاذ الغيب ، وسرعة الوصول إلى المذكور بالغيب بكلام اللطيف الخبير .

(١) الشعراء : ٩٣ — ٩٤ (٢) الإسراء : ٨٢ (٣) الزمر : ١
(٤) غافر : ١ — ٢

وشرح هذا كله مفهوم ومستنبط من قوله ، تعالى : « الذِينَ يؤمِنونَ بالغيبِ »(١)

قال أبو سعيد ابن الأعرابي : هم في غيبه مغيبون ، فبالغيب آمنوا بالغيب ، وهو ، وإن كان غيباً ، فإنه لا يلحقهم فى ذلك شك ولا ريب .

وقال ، تعالى : « قلِ اللهُ يهدِى للحقَّ ، أفمنْ يهدِى إلى الحقَّ أحقُّ أنْ يتبعَ ، أمنْ لا يهدى إلا أنْ يهدَى ؟ »(٢) ؛ وقال : « فمَا ذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرَفونَ ؟ »(٣).

وقال أبو سعيد الخراز ، رحمه الله : كلما أدرك الخلق من الله فإنما أدركوا غيباً خارجاً عن نعوت الحقائق ، وهو قوله : « الذين يؤمنون بالغيب » والغيب هو ما أشهد الله تعالى القلوب من إثبات صفات الله وأسمائه ، وما وصف به نفسه ، وما أدى إليهم الخبر فأثبتوا الصفات ، ولم يدعوا إدراكها على نهاية ، ألا تسمع إلى قوله ، تعالى : « ولوْ أنَّ ما فِى الأرْضِ منْ شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يمدهُ منْ بعدِهِ سبعة أبحر مَا نفدَتْ كلماتُ اللهِ »(٤) ؟ فإذا كان وصف كلامه لا يدرك ، ولا يوصل إلى نهاية فهمه ، فكيف يدرك حقيقة وصفه وهويته وكنهه ؟

فلذلك قرر عند أهل الفهم من أهل العلم أن كل شيء أشار إليه المتحققون ، والواجدون ، والعارفون ، والموحدون ؛ وماعبروا عنه ، وما لم تسعه العبارة ، ولا يومى إليه بالدلالة ، ولا يشار إليه بالإشارة ، من اختلاف المعارف ، وتباين الأحوال والمقامات والأماكن ، وغير ذلك مما شاهدوه ظاهراً وباطناً ، هو الغيب الذى وصفه الله تعالى ، بقوله : « الذين يؤمنون بالغيب » .

---

(١) البقرة : ٣
(٢) يونس : ٣٥
(٣) يونس : ٣٢
(٤) لقمان : ٢٨

باب وصف أرباب القلوب فى فهم القرآن

قال الشيخ ، رحمه الله : وقد ذكر الله تعالى وصف جميع أرباب القلوب وأهل الحقائق : من المريدين ، والعارفين ، والمتحققين ، والواجدين ، وأهل المجاهدات ، والرياضات ، والمتقربين إليه ، بأنواع الطاعات ، ظاهراً وباطناً ، كما فى كتابه وهو قوله ، عز وجل ، فيما يصف به ملائكته : « أولئكَ الذينَ يدعون يَبتغونَ إلَى رَبِّهِمْ الوَسيلَةَ أيهمْ أقربُ ؟ »[(١)] وقال للمؤمنين : « يأيهاَ الذينَ آمنوا اتقوا اللهَ وابْتغوا إليهِ الوسيلَةَ »[(٢)] .

فكان فى هذه الآية شرح و بيان فى صفة الذين يؤمنون بالغيب بابتغاء الوسيلة .

ثم زاد فى البيان والتفصيل فى آية أخرى ، يحث به المؤمنين على المسارعة إلى الخيرات ، فقال ، عز وجل : « أيحسبونَ أنمَا نمدهمْ بهِ منْ مالٍ و بنينَ نسارعُ لهمْ فِى الخيرات بل لا يشعرون »[(٣)] .

واستفاد أهل الفهم من هذه الآية أن أول المسارعة إلى الخيرات هو التقلل من الدنيا ، وترك الاهتمام بالرزق ، والتباعد والفرار من الجمع والمنع باختيار القلة على الكثرة ، والزهد فى الدنيا على الرغبة فيها .

ثم ذكر الذين يسارع لهم فى الخيرات ووصفهم فقال : « الذينَ همْ منْ خشيةِ رَبهمْ مشفقونَ »[(٤)] فوصفهم بالإشفاق من الخشية ؛ والخشية والإشفاق اسمان باطنان ، وهما عملان من أعمال القلب ، فالخشية سر فى القلب خفى والإشفاق من الخشية أخفى من الخشية .

وهو الذى ذكر الله ، تعالى فقال : « يعلمُ السرَّ وأخفىَ »[(٥)] .

وقد قيل : إن الخشية انكسار القلب من دوام الانتصاب بين يدى الله تعالى .

(١) الإسراء : ٥٧ (٢) المائدة : ٣٥ (٣) المؤمنون : ٥٥ — ٥٦
(٤) المعارج : ٢٧ (٥) طه : ٧

ثم من بعد هذه المرتبة الشريفة والحال الرفيعة التى وصفهم الله تعالى بهما من الخشية والإشفاق وغير ذلك فقال : « والذينَ همْ بآياتِ ربهمْ يؤمنونَ »[(١)] ، وكانوا قبل الخشية والإشفاق مؤمنين بآيات الله فعلم أنه أراد بذلك زيادة الإيمان ، ألا ترى أنه يصف رسوله الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان به بعد الرسالة والنبوة ، وذلك قوله ، عز وجل : « فآمنوا باللهِ ورسولهِ النبيِ الأميِ الذى يؤمنُ باللهِ وكلماته »[(٢)] .

فاستنبط أهل الفهم واستفادوا من هذه الآية أن زيادة الإيمان لا نهاية لها ، وأن جميع ما وصل إليه أهل الحقائق من بدايتهم ، أن ذلك من حقائق الإيمان وزيادته، وبراهينه وأنواره ، وأن لا نهاية لذلك .

ثم قال ، عز وجل : « والذينَ همْ بربهمْ لاَ يُشرِكونَ » ،[(٣)] فذكر أنهم لا يشركون بربهم بعد ما وصفهم بالخشية والإشفاق والإيمان .

فاستفاد أهل الفهم أيضاً من ذلك وعلموا مستنبط هذه الآية . وذكر الشرك هاهنا : أنه من الشرك الخفى الذى يعارض القلوب من رؤية الطاعات وطلب الأعواض بعد ما شهد شاهد صريح الإيمان أن لا ضار ولا نافع ، ولا معطى ولا مانع ، إلا الله؛ فعند ذلك شمروا وجدوا ، وتضرعوا إلى الله تعالى ، وطلبوا منه الخلاص لقلوبهم بصدق الإخلاص فى الإخلاص ، وعلموا أنهم على قدر إخلاصهم فى إيمانهم ينظرون إلى دقائق شركهم وريائهم الذى هو أخفى من دبيب النمل على الحجر الأسود فى الليلة الظلماء .

وقد ذكر عن سهل بن عبد الله ، رحمه الله : أنه كان يقول : أهل لا إلهَ إلا اللهُ ٤٤
كثير ، والمخلصون منهم قليل .

---

(١) المؤمنون . ٥٨ (٢) الأعراف : ١٥٨ (٣) المؤمنون . ٥٩

وقال سهل ، أيضاً : الدنيا كلها جهل إلا ما كان منه العلم ، والعلم كله حجة إلا ما كان العمل به ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص فيه ، وأهل الإخلاص على خطر عظيم .

ثم قال عز وجل : « والذِينَ يُؤتونَ مَا آتَوْا وقلوبهمْ وجلةٌ أنهمْ إلى ربهمْ رَاجعونَ »(١) .

فاستنبط أهل الفهم من هذه الآية ، أيضاً ؛ أن وجل قلوبهم مع ما آتوا من المسارعة والاستباق إلى هذه الأحوال التي ذكرنا ، أن ذلك الوجل هو الوجل الذى لا سبيل إلى الكشف عن علم ذلك ، ولا وقوف عليه لأحد من خلقه ، وهو علم الخاتمة ، وما سبق لهم من الله تعالى فى علم الغيب من الشقاوة والسعادة ؛ فعند ذلك تقطع نياط قلوبهم ، وذهلت عقولهم ، وذهبت علومهم ، وغابت فهومهم ، واقبلوا على الله تعالى ، بصدق اللجأ ، وإظهار الفاقة ودوام الافتقار .

وتصديق ذلك ما قد روى فى ذلك عن عائشة ، رضى الله عنها : أنها سألت رسول
٤٥ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يارسول الله : « الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة » هو الذى يزنى و يسرق و يشرب ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لا ، ولـكن هو الذى يصلى و يصوم و يتصدق و يخاف أن لا يقبل منه ، ثم قال : « وأولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون »(٢) .

فدل ذلك على أن بالمسارعة إلى هـــذه الخيرات تنال درجة السابقين وتبتغى منزلتهم .

---

(١) المؤمنون : ٦٠ (٢) المؤمنون : ٦١

باب ذكر السابقين ، والمقربين ، والأبرار

من طريق الفهم والاستنباط

قال الشيخ ، رحمه الله : قال الله ، تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون[(١)] » ، ثم بين فضل المقربين على من دونهم من الأبرار والسابقين بعدذلك فقال : « كلا إن كتاب الأبرار لفى عليين ، وما أدراك ماعليون[(٢)] » ، ثم قال : « إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون » وصف الكرامات التى أكرم بها الأبرار ، وماخصهم بهمن النعيم والدرجات فى عليين فقال : « تعرفُ فى وجوههم نضرة النعيم[(٣)] » ، يعنى أن أهل الجنة يعرفون بالنضارة التى فى وجوههم ، يعنى فى وجوه الأبرار من النعيم الذى خصوا به من بين أهل الجنة ، ثم قال : « يسقون من رَحيقمختوم[(٤)] » .

ولم يصف لأهل الجنة أنهم يسقون من الرحيق المختوم إلى قوله : « ومزاجهُ من تسنيم[(٥)] عيناً يشربُ بها المقربون[(٦)] » .

فخص الأبرار فى الجنةمن بين أهل الجنة بالرحيق المختوم ، ثم فضل شراب الأبرار وهو الرحيق المختوم على شراب أهل الجنة بمزاجه ، لأن مزاجه من التسنيم ، والتسنيم هو العين التى يشرب بها المقربون ، فصار شراب الذى فضلوا به على أهل الجنة معلولا بمزاجه عند شراب المقربين الذى ليس بممزوج .

---

(١) الواقعة : ١٠ - ١١
(٢) المطففون : ١٨ - ١٩
(٣) المطففون: ٢٢ - ٢٣
(٤) المطففون : ٢٥
(٥) المطففون : ٢٥
(٦) المطففون : ٢٨

فانظر إلى هذه الإشارة ، ما ألطفها فى معنى المقربين،لأن الأبرار الذين خصوا من أهل عليين بالرحيق المختوم ونضرة النعيم والأرائك يمزج لهم فى شرابهم مزاجاً من شراب المقربين ، الذى يشرب به المقربون على الدوام .

واستنبط أهل الفهم فيها معينين .

أحدهما: أن شراب الأبرار ممزوج ، وشراب المقربين صرف غيرممزوج ، كما قال الله عزوجل ، فى آيةأخرى : « إن الأبرار يشربونَ من كأسٍ كانَ مزاجها كافوراً[١] » ثم وصف ما أعد الله لهم ، ثم قال : « ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا عيناً فيها تسمى سلسبيلا[٢] » ، ثم أخذ فى صفة أخرى من نعيم أهل الجنة فقال : « وإذا رأيت ثَمَّ رأيت نعيما وملكا كبيراً[٣] » ، أشار إلى نعيم لاصفة له بقوله : « ثم رأيت نعيما » ولم يصف النعيم ، فلما بلغ إلى آخر القصة قال : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً[٤] » ، فكلما ذكر شربهم ووصف فى ذلك فعلهم بقوله : «يشربون» يذكر المزاج فى شربهم ، فلما قال : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » لم يذكر المزاج فى شربهم .

والمعنى الآخر : أن العين التى هى شراب المقربين يمزج منه بالعين التى هى شراب الأبرار .

ففضلوا على أهل الجنة بمزاج مزج شرابهم من التسنيم ، وهو العين التى يشرب بها المقربون .

---

(١) الإنسان : ٥ (٢) الإنسان : ١٧ — ١٨

(٣) الموجود فى قراءتنا «ثم» بمعنى هناك وقرأ الجمهور بفتح الثاء وحميد الأعرج بضمها : الإنسان : ٢٠

(٤) الإنسان : ٢١

فهذا فرق بين الأبرار والمقربين والله أعلم .

ثم قال جل ذكره : « ولا نكلفُ نفساً إلا وسعها[١] » ، فبين أن المؤمنين إنما أعطوا الاستطاعة على قدر الطاقة فى ركوب هذه الحقائق ومنازلة هذه الأحوال ، لأن جميع ما أتى به الأنبياء ، عليهم السلام ، فمن دونهم من الحقائق هو داخلٌ فى قوله عز وجل : « اتقوا الله ما استطعتُم[٢] » لم يخرج أحد من ذلك .

---

(١) المؤمنون : ٦٢ (٢) التغابن : ١٦

باب بيان التشديد فى القرآن ، ووجوه ذلك

قال الشيخ ، رحمه الله : اعلم أن الله تعالى قد أوجب على عباده بقوله : « واتقوا الله ما استطعتم » فرضاً ، لو أنهم أتوا بجميع أعمال الملائكة والأنبياء والصديقين ، ثم يطالبهم بحقيقة ذلك كان الذى عليهم فى ذلك من إثبات الحجة أكثر من الذى لهم

ألا ترى أن الملائكة مع ماجبلهم الله تعالى عليه من أنواع العبادات يقولون : ٤٥
سبحانك ربنا ، حقّ عبادتك ، ويقولون : « سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا[١] » .

فقد تبرءوا من علمهم وعبادتهم عند مشاهدة الحقيقة .

ومعنى قوله عز وجل : « اتقوا الله حق تقاتهِ[٢] » راجع إلى قوله : « فاتقوا الله ما استطعتم » .

والتشديد فى قوله : « اتقوا الله مااستطعتم » لأنك لوصليت ألف ركعة واستطعت أن تصلى ركعة أخرى فأخرت ذلك إلى وقت آخر فقد تركت استطاعتك ، ولوذكرت الله تعالى ألف مرة ، واستطعت أن تذكره مرة أخرى فتؤخر ذلك إلى وقت ثان فقد تركت استطاعتك ، وكذلك لو تصدقت على سائل بدرهم ، واستطعت أن تعطيه درهما آخر ، أو حبة أخرى فلم تفعل ذلك ، فقد تركت استطاعتك .

فمن أجل ذلك قلنا : التشديد فى قوله ما استطعتم .

ومن الآيات التى فيها التشديد أيضاً قوله تعالى : « فلا وربكَ لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت وأسلموا تسليما[٣] »

موضع التشديد فى هذه الآية : أن الله تعالى ، ذكر القسم أنهم لايؤمنون ، حتى يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما شجر بينهم ، ثم إن وجدوا فى أنفسهم

---

(١) البقرة : ٢٣ (٢) آل عمران : ١٠٢ (٣) النساء : ٦٥

حرجاً ، يعنى فى قلوبهم وأسرارهم و باطنهم ضيقا ، أو كراهة فى حكمه ، لو أنه حكم عليهم بالقتل ، فقد خرجوا من الإيمان .

وقد ذكر الله القسم على خروجهم من الإيمان .

فلو قسنا على ذلك ما أمرنا الله تعالى به من الصبر على أحكام الله عزوجل ، والرضا بما قسم الله لنا من الأخلاق والأرزاق ، والآجال والأعمال لم نجد معنا . ومع كثير من الناس ، ذرة من الإيمان ؛ ولولا رجاء الخلق فى سعة رحمه الله تعالى لهلكوا بذلك .

باب ما قيل فى فهم الحروف والأسماء

قال : الشيخ رحمه الله : يقال : إن جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم :ما عبر عنه وما أشير إليه ، مستنبط من حرفين من أول كتاب الله ، تعالى ، وهو قوله : «بسم الله ، والحمد لله : لأن معناه بالله ولله ، والإشارة فى ذلك : أن جميع ما أحاط به علوم الخلق وأدركته فهو منهم فليست هى قائمة بذواتها ، إنما هى بالله ولله .

وقيل للشبلى ، رحمه الله ،كما بلغنى : أيش الإشارة فى الباء من « بسم الله؟ فقال أى بالله قامت الأرواح ، والأجساد ، والحركات ، لا بذواتها.

وقيل لأبى العباس بن عطاء ، رحمه الله : إلى ماذا سكنت قلوب العارفين؟ فقال: إلى أول حرف من كتابه وهو الباء من : «بسم الله الرحمن الرحيم» فإن معناه أن بالله ظهرت الأشياء ، وبه فنيت ، و بتجليه حسنت و باستتاره قبحت وسمجت لأن فى اسمه « الله »هيبته وكبرياءه ؛ وفى اسمه : الرحمن » محبته ومودته ؛ وفى اسمه : « الرحيم » عونه ونصرته .

فسبحان من فرق بين هذه المعانى فى لطائفها بهذه الأسماء فى غوامضها !!!

قال الشيخ رحمه الله : معنى قوله : بتجليه حسنت يعنى بقبوله لهـــا ، و بذا سميت الحسنة حسنة ، لأنه قبلها ، ولو لم يقبلها ما سميت الحسنة حسنة ، ومعنى قوله : باستتاره قبحت وسمجت ، يعنى برده لها وإعراضه عنها ، وبذلك سميت السيئة سيئة ولو لا ذلك لما سميت سيئة

وقال أبو بكر الواسطى ، رحمه الله : كل اسم من أسماء الله تعالى يتخلق به إلا اسمه: الله ، واسمه الرحمن ؛ لأنهما للتعلق دون التخلق، وكذلك الصمدية ممتنعة عن الإدراك والإحاطة قال الله تعالى : « ولا يحيطون به علما[1] »

---

(١) طه : ١١٠

وقد قيل ، أيضاً : إن اسم الله الأعظم هو : الله ؛ لأنه إذا ذهب عنه الألف يبقى لله وإن ذهب عنه اللام يبقى له ، فلم تذهب الإشارة ، و إن ذهب عنه اللام الآخر فيبقى هاء وجميع الأسرار فى الهاء ؛ لأن معناه : هو ، وجميع أسماء الله تعالى إذا ذهب عنه حرف واحد يذهب المعنى ولم يبق فيه موضع الإشارة ، ولا تحمل العبارة

فمن أجل ذلك لا يسمى به غير الله تعالى .

وعن سهل بن عبد الله رحمه الله : أنه قال : الألف أول الحروف وأعظم الحروف وهو الإشارة فى الألف ، أى : الله الذى ألف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء

وقال أبو سعيد الخراز ، رحمه الله : إذا كان العبد مجموعا على الله تعالى ، لا ينصرف منه جارحة إلى غير الله عز وجل ، فعندها تقع له حقائق الفهم عند تلاوة كتاب الله عز وجل الذى ليس مع الخلق

وقال أبو سعيد ، رحمه الله : كلما بدا حرف من الأحرف من كتاب الله عز وجل على قدر قربك وحضورك عنده فله مشرب وفهم غير مخرج الفهم الآخر ؛ إذا سمعت بقوله : « الم ذلك » فللألف علم يظهر فى الفهم غير ما يظهر اللام ، وعلى قدر المحبة ، وصفاء الذكر ووجود القرب يقع التفاوت فى الفهم

قال أبو سليمان الدارانى : ربما جاءت الآية خمس ليال ، فلو لا أنى أترك الفكر فيها ما جزتها أبدا وربما جاءت الآية من القرآن فيطير معها العقل !!! فسبحان الذى يرده بعد ذلك .

وقال وهيب بن الورد رحمه الله . نظرنا فى هذه الأحاديث والآداب فلم نجد شيئاً أرق لهذه القلوب ، ولا أشد استجلابا للحزن من تلاوة القرآن وتدبره !!

باب فى وصف من أصاب فى الاستنباط ، والإشارة

والفهم فى القرآن ووصف من غلط وأخطأ فى ذلك ،

قال الشيخ رحمه الله : وأما ما قال الناس من طريق الاستنباط والفهم ، فالصحيح من ذلك : أن لاتقدم ما أخر الله تعالى ، ولا تؤخر ما قدم الله ، ولا تنازع الربوبية ، ولا تخرج عن العبودية ، ولا يكون فيه تحريف الكلم .

وهذا حكى عن بعضهم كما : أنه سئل عن قوله ، عز وجل : « وأيوب إذ نادى[١] ربه أنى مسنى الضر » فقال : معناه : ما ساءنى الضر .

وبلغنى عن بعضهم ، أيضاً : أنه سئل عن قوله : «ألم يجدك يتيما فآوى» ، فقال: معنى اليتيم مأخوذ من الدرة اليتيمة التى لايوجد مثلها

وكما سئل آخر عن معنى قوله ، عز وجل : « قل إنما أنا بشر مثلكم »[٢] فقال : معناه : أنا بشر مثلكم عندكم .

فهذا وأشباه ذلك خطأ وبهتان وخسارة على الله ، تعالى وجهل ، وقلة المبالاة،وهو تحريف الكلام عن مواضعه . فهذا هو السقيم .

وأما الصحيح من ذلك فكما سئل أبو بكر الكتانى ، رحمه الله ، عن قوله تعالى: إلا من أتى الله بقلب سليم[٣] » ، فقال : القلب السليم على ثلاثة أوجه من طريق الفهم :

أحدها : هو الذى يلقى الله تعالى عز وجل وليس فى قلبه مع الله شريك .

والثانى : هو الذى يلقى الله تعالى وليس فى قلبه شغل مع الله ، عز وجل ، ولايريد غير الله تعالى .

---

(١) الأنبياء : ٨٣ (٢) الكهف : ١١٠ (٣) الشعراء : ٨٩

والثالث : الذى يلقى الله ، عزوجل ، ولا يقوم به غيرالله عز فنى عن الأشياء بالله ثم فنى عن الله بالله .

ومعنى قوله فنى عن الله بالله يعنى يذهب عن رؤية طاعة الله عز وجل ورؤية ذكر الله ورؤية محبة الله ، بذكر الله له ، ومحبته قبل الخلق ، لأن الخلق بذكره لهم ذكروه ، وبمحبته لهم احبوه ، ، وبقديم عنايته بهم أطاعوه .

وكما سئل شاه الكرمانى رحمه الله ، عن معنى قوله ، عز وجل : « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هوَ يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضتُ فهو يشفين[1] » ، فقال : الذى خلقنى فهو يهدين إليه لا غيره ، وهو الذى يطعمنى الرضا ويسقينى المحبة ، وإذا مرضتُ بمشاهدة نفسى فهو يشفينى بمشاهدته ، والذى يميتنى عن نفسى ويحيينى به فأقوم به لا بنفسى ، والذى أطمعُ أن لا يخجلنى يوم ألقاه بنظرى إلى طاعتى وأعمالى ، ثم أفتقر إليه بكليتى .

لما علم أنه لم ينل مانال إلا به ولا ينال ما يأمل إلا به فقال : « ربِ هب لى حكما وألحقنى بالصالحينَ[2] » .

كما سئل أبو بكر الواسطى رحمه الله عن قوله تعالى : « الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكر الله[3] » ، فقال : قلبُ المؤمن قلبٌ يطمئن بذكر الله تعالى ، وقلبُ العارف لايطمئن بسواه .

وكما سئل الشبلى رحمه الله ، عن قوله : « قل للمؤمنينَ يغضوا من أبصارهم[4] » فقال : « أبصار الرءوس عن محارم الله تعالى .

---

(١) الشعراء : ٨٠
(٢) الشعراء : ٨٣
(٣) الرعد : ٢٨
(٤) النور : ٣٠

وكما سئل الشبلى ، رحمه الله ، عن قوله : « إن فى ذلك لذكرى لمن كانَ لهُ قلبٌ أوألقى السمع وهو شهيدٌ[(١)] » فقال لمن كان الله تعالى قلبه ، ثم أنشد :

لَيْسَ مِنِّى إليْكَ قَلْبٌ مُعَنًّى كلُّ عُضْوٍ مِنِّى إلَيْكَ قلوبُ

فهذا من طريق الفهم .

وأما طريق الإشارة فعلى ماقال أبو العباس بن عطاء ، رحمه الله : الحق لا يوجد مع الزلل ، وأشار إلى قوله : « فإنْ زللتم مِن بعدِ ما جاءتكم البيناتُ فاعلموا أنَّ الله عزيزٌ حكيم » .

وكما كان يقول : (المُحِبُّ يسقط عنه التعذيب ، ووجود الألم بصفات البشرية) .

وكان يستدل بقوله تعالى : « وقَالَتْ اليَهُودُ والنصارَى نحنُ أبناء الله وأحِبَّاؤه ، قل فلِمَ يُعذبكم بذنوبكم بل أنتم بَشرٌ ممن خلق[(٢)] » .

وكما أشار أبو يزيد البسطامى ، رحمه الله ، حين سئل عن المعرفة فقال : « إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدُوها وجَعلوا أعِزَّةَ أهلها أذِلة وكذلك[(٣)] يَفعلونَ » .

أراد بذلك أن عادة الملوك إذا نزلوا قرية أن يستعبدوا أهلها ، ويجعلوهم أذلة لهم ، ولا يقدرون أن يعملوا شيئاً إلا بأمر الملك ؛ وكذلك المعرفة : إذا دخلت القلب لاتترك فيه شيئاً إلا أخرجته ، ولا يتحرك فيه شىء إلا أحرقته .

وكما كان يشير الجنيد رحمه الله : إذا سئل عن سكونه وقلة اضطراب جوارحه عند السماع إلى قوله : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله

---

(١) ق : ٣٧ (٢) المائدة : ١٨

(٣) النمل : ٣٤

الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ »[1] .

وكما كان يشير أبو على الروذبارى ، رحمه الله ، إذا رأى أصحابه مجتمعين فيقرأ « وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ »[2] .

واحتجّ أبو بكر الزقّاق ، رحمه الله ، على ما قيل للزُّهرى فى تعريف الإنسان فقال : إن تكلم ففى ساعة ، وإن سكت ففى يوم لقول الله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ »[3] .

فهذا وأشباه ذلك صحيح والله أعلم ، فقِسْ على ما بيّنتُ لك ما تسمعُ من إشارات القوم ومستنبطاتهم ، حتى تميّز بين الصحيح والسقيم ، والعاقل يستغنى بالقليل عن الكثير ، ويستدلّ بالشاهد على الغايب ، وبالله التوفيق .

---

(١) النمل : ٨٨ (٢) الشورى : ٢٩ (٣) محمد : ٣٠

كتاب الأسوة والاقتداء برسول صلى الله عليه وسلم

باب وصف أهل الصفوة فى الفهم ، والموافقة والاتّباع للنبى عليه الصلاة والسلام

قال الشيخ ، رحمه الله : قال الله تعالى لنبيّه عليه الصلاة والسلام : « قُلْ يـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً »(١) ، فأعلَمنا بذلك أنه بُعثَ للخلق كافةً .

ثمّ قال : « وَإِنكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الذى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَات وما فى الأرْضِ »(٢) .

فقد شهد الله تعالى له بأنه يَهدى إلى صراط مستقيم .

ثم أوجب علينا نفى الهوى عن نُطقه ، لقوله ، عزّ وجلّ : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهوَى »(٣)

ثم وصفه الله تعالى فقال : « هُوَ الَّذِى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً منهمْ يَتْلُوا عليهمْ آيَاته وَيُزَكِّيهم وَيُعَلِّمهمُ الكِتَابَ وَالحكْمة »(٤) ، فأعلَمنا أنه يَتلو علينا آياته ، ويعلمنا الكتاب ــ وهو القرآن ، والحكمة ــ وهى الإصابة ، والإصابة سُنّته ، وآدابه ، وأخلاقه ، وأفعاله ، وأحواله ، وحقائقه .

---

(١) الأعراف : ١٥٨

(٢) الشورى: ٥٢ـ٥٣

(٣) النجم : ٣

(٤) الجمعة : ٢

ثم بلّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أُنزل إليه من ربّه ، وما أُمر بإبلاغه لقوله عزّ وجلّ : « يأيُّهَا الرَّسُولُ بَلغْ ما أُنْزِلَ إلَيكَ مِنْ رَبِّكَ »[١] .

ثم أمر اللهُ عزّ وجلّ الخلق كافةً بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أمرهم بطاعته ؛ لقوله عزّ وجلّ : « أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ »[٢] ، وقوله : « وَمَنْ يُطعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ الله »[٣] ، وأمرهم بالقبول منه ، بقوله عزّ وجلّ : « مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ »[٤] ، وأمرهم بالانتهاء عما نهى عنه بقوله جل وعلا : « وَما نَهَاكُمْ عنهُ فَانْتَهُوا »[٥] ، ودلهم على الاهتداء باتّباعه بقوله تعالى : « وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون »[٦] ، ووعدهم الهداية بطاعته بقوله عزّ وجلّ : « وَإنْ تُطيعُوهُ تَهْتَدُوا »[٧] ، وحذّرهم الفتنة ، والعذاب الأليم ، إن خالفوا أمْره فقال عزّ وجل : « فَلْيَحْذَرِ الذين يُخَالِفُون عنْ أمْرِهِ أنْ تُصيبَهم فِتنَةٌ أوْ يُصيبَهُمْ عذابٌ أَليمٌ »[٨] .

ثم عرّفنا الله تعالى ، أن محبّة الله للمؤمنين ، ومحبّة المؤمنين لله فى اتباع رسوله بقوله عزّ وجلّ : « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ »[٩] .

ثم ندب الله المؤمنين إلى الأسوة الحسنة برسوله عليه الصلاة والسلام ، فقال « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »[١٠] .

---

(١) المائدة : ٦٧ (٢) النور : ٥٤ (٣) النساء : ٨٠
(٤) الحشر : ٧ (٥) الحشر : ٧ (٦) الأعراف : ١٥٨
(٧) النور : ٥٤ (٨) النور : ٦٣ (٩) آل عمران : ٣١
(١٠) الأحزاب : ٢١

ثم روى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أخبار ؛ فكل خبر ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام بنقل الثقة عن الثقة ، حتى انتهى إلينا ، فالأخذ به لازم لجميع المسلمين ؛ لقوله ، عز وجل : « أقيموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ وأطيعوا الرسولَ[١] » وقوله : « إنك على صراطٍ مستقيمٍ »[٢] .

فصار الأسوة به ، والاتباع له ، والطاعة لأمره ، واجباً على جميع خلقه ممن شهد أو غاب إلى يوم القيمه ، غير الثلاثة الذين رفع القلم عنهم .

فمن وافق القرآن ولم يتبع سنن رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، فهو مخالف للقرآن غير متبع له ، والمتابعة والاقتداء : هى الأسوة الحسنة برسول الله عليه الصلاة فى جميع ما صح عنه من أخلاقه ، وأفعاله وأحواله ، وأوامره ، ونواهيه ، وندبه ، وترغيبه ، وترهيبه ، إلا ما قام الدليل على خلافه ، كقوله ، عز وجل : « خالِصةً
٤٦ لَكَ من دون المؤمنينَ[٣] » ، وقول النبى عليه الصلاة والسلام ، فى الوصال : لست
٤٧ كأحدكم ، وقوله ، عليه الصلاة والسلام فى حديث الأضحية لأبى بردة ينار : اذبح ، ولا تجزى عن أحد بعدك ؛ وما يشبه ذلك مما يقوم عليه الدليل من نص الكتاب والآثار .

فأما ما روى عن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فى الحدود ، والأحكام ، والعبادات : من الفرائض ، والسنن ، والأمر ، والنهى ؛ والاستحباب والرخص ، والتوسيع ؛ فذلك من أصول الدين ، وهو مدون عند العلماء والفقهاء ، ومستعمل فيما بينهم ، ومشهور عندهم ؛ لإنهم الأئمة الحافظون لحدود الله ، المتمسكون بسنن رسول الله عليه الصلاة والسلام ، الناصرون لدين الله ، عز وجل ، يحفظون على الخلق

---

(١) النور : ٥٦ (٢) الزخرف : ٤٣ (٣) الأحزاب : ٥٠

دينهم ، ويبينون لهم الحلال من الحرام ، والحق والباطن ؛ فهم حجج الله تعالى : على خلقه ، والدعاة له فى دينه ، فهؤلاء هم الخاصة من العامة .

فأمّا الخاصة من هؤلاء الخاصّة : لمـّا أحـكموا الأصول ، وحفظوا الحدود ، وتمسّـكوا بهذه السُّنن ، ولم يبق عليهم من ذلك بقيّة ، استبحثوا أخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام ، التى وردت فى أنواع الطاعات ، والآداب ، والعبادات ، والأخلاق الشريفة ، والأحوال الرضيّة ؛ وطالبوا أنفسهم بمتـابعة رسول الله عليه الصلاة والسلام ، والأسوة به ، واقتفاء أثَره بما بلغهم من آدابه ، وأخلاقه ، وأفعاله ، وأحواله ؛ فعظّموا ما عظّم ، وصغّروا ما صغّر ، وقلّلوا ما قلّل ، وكثّروا ما كثّر ، وكرهوا ما كره ، واختاروا ما اختار ، وتركوا ما ترك ، وصبروا على ما صبر ، وعادَوْا من عادى ، ووَالَوْا من وَالَى ، وفضّلوا من فضّل ، ورغبوا فيما رغب ، وحذروا ما حذر ؛ لأن عائشة رضى الله عنهـا ، سُئلت عن خُلق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ فقالت : كان خُلقه القرآن ، تعنى موافقة القرآن . ٤٨

ورُوى عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال : بُعثتُ بمكارم الأخلاق . ٤٩

باب ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى أخلاقه ، وأفعاله ، وأحواله

التى اختارها الله تعالى له

قال الشيخ ، رحمه الله : رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم : أنه قال : إنه سبحانه أدبنى فأحسن أدبى .

٥٠ وقد رُوى عنه ، عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله ».

٥١ وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « خُيِّرْتُ بين أن أكون نبيًّا مَلِكا أو أكون نبيًّا عبداً ؛ فأشار إلىَّ جبريل عليه السلام أن تواضع ، فقلت : بل أكون نبيًّا عبداً : أشبع يوماً وأجوع يوماً» .

٥٢ ورُوى عنه ، عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : « عُرِض علىَّ الدنيا فأبيتُها » .

٥٣ وقال عليه الصلاة والسلام : « لو كان لى أُحُدٌ ذهباً لأنفقتُه فى سبيل الله إلا شىء أُرصدُه لدَين » .

٥٤ ورُوى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه لم يدّخر شيئاً لغدٍ ، وأنه إنما ادخر مرة قُوت سنة لعياله ولمن يَردُ عليه من الوفود .

٥٥ وقد رُوى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه لم يكن له قميصان ، ولم ينخل له طعام ، وأنه خرج عليه الصلاة والسلام من الدنيا ولم يشبع من خبز بُرّ قطّ ، اختياراً لا اضطراراً ؛ لأنه لو سأل الله عز وجل أن يجعل له الجبال ذهباً ولم يحاسب عليه ، لفَعَل ذلك .

وقد رُوى شبيهاً بذلك فى الأخبار والروايات .

٥٦ وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لبلال رضى الله عنه : « أنفِقْ بلال ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

٥٧ ووضعت بريرة بين يديه عليه الصلاة والسلام ، طعاما فأكل منه فردته إليه الليلة الثانية ؛ فقال لها : أما خشيتِ أن يكون له بُخارٌ يوم القيامة ؟ لا تدّخرى شيئا لغدٍ ؛ فإنه عز وجل يأتى برزق كل غدٍ ، أو قال : يوم .

٥٨ ورُوى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه لم يعب طعاما قط ، إن اشتهاه أكله ، وإن لم يشتهه تركه ، ولا خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما .

ولم يكن النبى ، صلى الله عليه وسلم زرّاعا ، ولا تاجراً ، ولا حرّاثا .

٥٩ وكان من تواضعه صلى الله عليه وسلم : يلبس الصوف ، وينتعل المخصوف ، ويركب الحمار ، ويحلب الشاة ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، وكان لا يأنف أن يركب الحمار ، ويُردِف خلفه .

٦٠ وقد روى فى الخبر : أنه عليه الصلاة والسلام كان يكره الغنا ، ولا يخشى من الفقر ، وكان يمر به وبأزواجه الشهر والشهران فلا يوقد فى بيته نار للخبز ، وأنه كان طعامهم الأسودين : التمر ، والماء .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه خير نساءه فاخترن الله ورسوله ، وفيهن نزل : (يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وزينتها(١)) الآيتين جميعا .

٦١ وكان من دعائه عليه السلام : « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا واحشرنى فى زمرة المساكين » .

---

(١) الأحزاب : ٢٨

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم أيضا : « اللهمّ ارزقْ آل محمد قوت يوم بيوم » .

وكان أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم كما
٦٢ رُوى عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقل البعير ، ويعلف الناضح ، ويقمّ البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معها إذا هى أعيت ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغنى والفقير ، ويسلم مبتدئا ، وكان لا يرد من دعاه ، ولا يحقر ما دُعى إليه ، ولو إلى حَشَف التمر ، وكان لين الُخلق ، كريم الطبع ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه ، بساما من غير ضحك ، محزونا من غير عُبوس ، متواضعا من غير ذلة ، جواداً من غير سَرَف ، رقيق القلب ، دائم الإطراق ، رحيماً بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شِبَع ، ولا مدّ يده إلى طمع .

٦٣ وقالت عائشة رضى الله عنها : كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود من الريح المرسلة .

٦٤ ووهب النبى صلى الله عليه وسلم ما بين جبلين من الغنم لرجل واحد ، فرجع ذلك الرجل إلى قبيلته ، وقال : إن محمداً عليه الصلاة والسلام يُعطى عطاء من لا يخشى الفقر .

٦٥ ولم يكن رسول الله عليه الصلاة والسلام صخّاباً ، ولا فحّاشاً ، ولا متفحشا .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يأكل على الأرض . ويجلس على الأرض . ويلبس العباء . ويجالس المساكين ويمشى فى الأسواق . ويتوسد يده ويقتص من نفسه . ولم يُرَ ضاحكا ملء فيه . ولم يأكل وحده قط . ولا ضرب عبده قط . ولا ضرب أحداً بيده إلا فى سبيل الله عز وجل . وكان لا يجلس متربعا . ولا يأكل متكئا . ويقول : « آكلُ كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه شد الحجر على بطنه من الجوع ، ولو سأل ٦٦
ربه أن يجعل له أبا قبيس ذهبا لأجابه .

وحمل النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه إلى بيت أبى الهيثم بن التيِّهان من غير أن ٦٧
دعاه ، وأكل فى بيته من طعامه ، وشرب من شرابه ، وقال هذا من النعيم الذى تسألون عنه .

ودعاه عليه الصلاة والسلام رجل آخر إلى بيته مع خمسة من أصحابه ؛ فلم يدخل معه السادس إلا بإذنه .

ويُرْوَى فى الحديث أن النبى عليه الصلاة والسلام لبس منديلا له عَلم . ثم رمى ٦٨
به ، وقال : كاد تلهينى أعلامه ، وقال : إيتونى بأنبجانية أبى جهم . ٦٩

وسأل عن الصلاة فى ثوب واحد فقال : أوَكلكم يجدُ ثوبين ؟ ٧٠

وقال : أنا ابن امرأة [من قريش] كانت تأكل القديد . ٧١

وقال : لاتفضلونى على يونس بن متى عليه السلام . ٧٢

وقال : [مرّةً] : أنا سيد ولد آدم ولا فخر . ٧٣

وقال عليه الصلاة والسلام : « إنى أعطى أقواما وأمنع آخرين ، وليس الذى ٧٤
أعطيه بأحب إلىّ من الذى أمنعه » .

٧٥ وقال : أول من يدخل الجنة فقراء الأنصار . الشعثة رءوسهم . الدنسة ثيابُهم . الذين لا ينكحون المتنعمات ، ولا تفتح لهم السدد .

٧٦ وقال عليه الصلاة والسلام : « ما لى وللدنيا » .

٧٧ وقال : « ليكن بُلغة أحدكم كزاد الراكب » .

٧٨ وقال : « يدخل فقراء أمّتى الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم وهو خمسمائة عام » .

٧٩ وقال : « نحن معشر الأنبياء أشد الناس بلاءً ، ثم الأمثل فالأمثل ، ويُبتلى الرجل على قدر دينه ؛ فإن كان فى دينه صلابة فهو أشد بلاء » .

٨٠ وقال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم : إنى أحبُّك ، قال : أستعدّ للبلاء جلبابا .

٨١ ورُوى عن النبى صلى عليه وسلم قال : « حبّب إلىّ من دنياكم ثلاث » .

٨٢ وقال : أنتم أعلم بدنياكم ، فأضاف الدنيا إليهم وأخرج نفسه منها .

٨٣ ولم يضع رسول الله صلى الله عليه وسلم لبنةً على لبنة إلى أن خرج من الدنيا .

٨٤ وخرج عليه [الصلاة و] السلام من الدنيا ودِرْعُه مرهونة عند يهودى على صاع من شعير ، ولم يترك ديناراً ، ولا درهما ، ولم يقسم له ميراثٌ ، ولم يوجد فى بيته أثاث .

٨٥ وقال : نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة .

وكان يقبل الهدية ، والكرامة ، والعطية ، وكان لا يأكل من الصدقة ، ويأخذها منهم .

٨٦ وروى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه قال : ما أوحى الله ، تعالى ، أن أجمع المال وأ كون تاجراً، ولكن أوحى إلىَّ أن : « سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ، وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ الْيَقِينُ(١) ».

٨٧ وروى عن عائشة رضى الله عنها : أنها قالت . ذبحنا شاة فتصدقنا بها حتى لم يبق إلا كتفها [قالت] : فقلت : يا رسول الله ، ذهب كلها إلا كتفها !! فقال النبى عليه الصلاة والسلام : بقيت كلها إلا كتفها.

قال الله ، عزّ وجلّ : « نٓ والقلمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ وإنَّ لَكَ لأجراً غَيْرَ مَمْنون ، وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ(٢) » .

٨٨ وقال النبى صلى الله عليه وسلم إن الله يحب مكارم الأخلاق ، ويكره سفسافها . وقال ، عليه الصلاة والسلام : بُعِثتُ لآتى بمكارم الأخلاق .

٨٩ وكان من خُلقه ، صلوات الله عليه ، الحياء ، والسخاء ، والتوكل ، والرضا ، والذكر ، والشكر والحلم ، والصبر ، والعفو ، والصفح ، والرأفة ، والرحمة والمداراة ، والنصيحة ، والسكينة والوقار ، والتواضع ، والافتقار ، والجود ، والسماحة ، والخضوع ، والقوة، والشجاعة ، والرفق ، والإخلاص ، والصدق ، والزهد،والقناعة، والخشوع ، والخشية ، والتعظيم ، والهيبة ، والدعاء والبكاء ، والخوف ، والرجاء ، واللياذة(٣) ، واللجأ ، والتهجد ، والعبادة ، والجهاد ، والمجاهدة .

٩٠ وكما روى عنه عليه الصلاة والسلام : أنه كان متواصل الأحزان ، دائم الفكرة وكان لصدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَل .

٩١ وأنه عليه الصلاة والسلام ، صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له : يا رسول الله أليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر !! قال : أفلا أكون عبداً شكوراً

---

(١) الحجر : ٩٨-٩٩ (٢) ن : ١-٤

(٣) لاذ به : لجأ إليه

٩٢ وكان عليه الصلاة والسلام يُعطى من حرَمَهُ ويَصلُ من قطعه ، ويعفو عمن ظلمه ؛ وما انتقم رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، لنفسه قط ، ولا غضب لنفسه قط إلا أن تنتهك محارم الله فيغضب لله .

٩٣ وكان للأرملة كالزّوج الشفيق ، ولليتيم كالأب الرحيم !!!

٩٤ وقال عليه السلام من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كَلاًّ أو ضياعاً فإلىّ

وقال : اللهم إنى بشرٌ أغضب كما يغضب البشر فأيما امرىء سببته أو لعنته فاجعل ذلك كفارة له ، أو كما قال :

٩٥ وقال أنس بن مالك : خدمت رسول الله عليه الصلاة والسلام عشر سنين ، فما ضربنى ولا كَهرَنى[1] ، ولا قال لى لشىء فعلته : لِمَ فعلت ! ولا لشىء لم أفعله لِمَ لم تفعله .

٩٦ ولو لم يكن من كرمه وعفوه وحلمه إلا ما كان منه يوم فتح مكة لكان من كمال الكمال .

وذلك أنه دخل مكة صلحا ، وقد قتلوا أعمامه وأولياءه بعد أن حصروه فى الشعاب ، وعذبوا أصحابه بأنواع العذاب ، وأخرجوه ، وأدموه ، وطرحوا عليه الرّوث ، وآذوه فى نفسه ، وفى أصحابه ، وسفهوا عليه ، واجتمعوا على كيده ؛ فلما دخلها بغير حدهم ، وظهر عليهم ، على صغر منهم ، قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أقول كما قال أخى يوسف عليه السلام : لا تثريب عليكم اليوم ، فغفر الله لكم ؛ وقال من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

وما يشبه ذلك مما يرد من الأخبار الصحيحة فى هذا المعنى أكثر مما يتهيأ ذكره ؛ وإنما ذكرنا طرفاً ليُستدل به على مالم نذكره ، والله أعلم بالصواب .

---

(١) كهر وقهر بمعنى واحد .

باب بيان ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرخص والتوسيع على الأمة فيما أباح الله ، تعالى ، لهم

ووجه ذلك فى حال الخصوص ، والعموم ، فى الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم

فأما ما روى عن النبى ، عليه الصلاة والسلام ، مما جمع الله عليه من أموال بنى قريظة ، والنضير ، وفدَك ، وخَيبر ، وأشباه ذلك ، والحُلة التى أهديت إليه والجمع والسيف الذى فى قرابه فضة ، والستور التى كانت فى البيت ، والراية التى كانت له ، والبغل ، والناقة ، والحمار ، والبردة ، والعمامة ، والخف الذى أهدى إليه النجاشى ، وغير ذلك مما يكثر ذكره ، وأنه كان يحب الحلو البارد ، وأنه أكل الخبيص ، والذى قال لأصحابه : كلوا واشبعوا ، وما جانس ذلك من الأخبار المروية عنه ، عليه الصلاة والسلام ، فإن جميع ذلك فى الرخصة والتوسيع على الأمة والإباحة لها ، لأنه كان عليه الصلاة والسلام ، إمام الخلق إلى يوم القيامة ، وأنه قال صلى الله عليه وسلم : بُعثتُ بالحنفية السمحة ، وقال : عليه الصلاة والسلام : إنما أنسى لأسُنّ .

ولو لم يوسع الله تعالى على الخلق التعلق بالرخص والأخذ بما أباح الله تعالى لهم فى الطلب والجمع والإمساك والمكاسب بشرط العلم لهلكوا ؛ لأن الله ، تعالى ، لم يدع الخلق إلى جمع الأموال والصنائع والتجارات ولكن أباح لهم ذلك ، لعلمه بضعفهم .

وقد دعاهم الله تعالى إلى طاعته ، وعبادته ، وندب كافة المؤمنين إلى ذكره ،

وشكره ، والتوكل عليه ، والانقطاع إليه ، بقوله ، تعالى : « يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً[1] » وقوله تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين[2] » ، وقال تعالى « وأنا ربكم فاتقون[3] » ، « وإياى فارهبون[4] » « وإياى فاتقون[5] » وأشباهه .

وليس حال الناس فى هذه المباحات والرخص كحال الأنبياء عليهم السلام ؛ لأن تعلق الناس أكثرهم بالرخص والمباحات من ضعف إيمانهم ، وميل نفوسهم إلى الحظوظ ، وعجزهم عن حمل أثقال مرارة الصبر والقناعة بما لابد لهم منها ، وربما يؤديهم ذلك إلى اتباع الشهوات ، واكتساب السيئات ، إن تخلفوا عن آداء حقوقها ولم يقوموا بشرائط العلم فى تناولها .

فأما الأنبياء عليهم السلام ، فقد هذبوا بتأييد النبوة ، وقوة الرسالة ، وأنوار الوحى ، لاتأخذ منهم الأشياء ، ويكون كونهم فيها لغيرهم ، وقيامهم فيها لحقوقهم ، لا لحظوظهم .

ألا ترى فى قوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل[6] » ، فقد أخبر بأن ما أفاء الله عليهم فهو لله وللرسول ولذى القربى واليتامى ، قالوا : ومعنى « فلله وللرسول » ، يعنى : وللرسول أن يضعه فى مواضعه ، والذى قال : خمس الخمس فإن ذلك كان يضعه حيث يشاء .

---

(١) الأحزاب : ٤١
(٢) المائدة : ٢٣
(٣) المؤمنون : ٥٢
(٤) البقرة : ٤٠
(٥) البقرة : ٤١
(٦) الحشر : ٧

والناس فى موافقة كتاب الله تعالى واتباع رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، على ثلاثة أقسام :

فمنهم من تعلق بالرخص ، والمباحات ، والتأويل ، والسعة .

ومنهم من تعلق بعلم الفرائض ، والسنن ، والحدود والأحكام .

ومنهم من أحكم ذلك ، وعلم من أحكام الدين مالا يسعه الجهل به ، ثم تعلق بالأحوال السنية ، والأعمال الرضية ، ومكارم الأخلاق ، ومعالى الأمور ، وحقائق الحقوق ، والتحقق ، والصدق .

كما روى فى الحديث : أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لحارثة : لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى ، وكأنى.. كما جاء فى الحديث.

فقال النبى عليه الصلاة والسلام : عرفت فالزم ، أو قال : عبدٌ نوّر الله قلبه .

ويقال : إن أصل جميع ما تكلموا فيه من علم الباطن أربعة أحاديث .

حديث جبريل ، عليه السلام ، حيث سأل رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، عن الإيمان ، والإحسان ، فقال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه الحديث .

وحديث عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، أنه قال : أخذ الرسول عليه الصلاة والسلام بيدى ، وقال لى : ياغلام احفظ الله يحفظك .

وحديث وابصة الإثم ما حاك فى صدرك ، والبر ما اطمأن إليه نفسك .

وحديث النعمان بن بشير عن النبى عليه الصلاة والسلام : الحلال بين والحرام بين

وقول النبى عليه الصلاة والسلام لا ضرر ولا ضرار فى الإسلام .

باب ما ذكر عن المشايخ فى اتباعهم(١) رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وتخصيصهم فى ذلك

قال الشيخ رحمه الله : سمعت [أبا عمرو] عبد الواحد بن علوان رحمه الله : سمعت الجنيد ، رحمه الله ، يقول : علمنا هذا مشتبك بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسمعتُ أبا عمرو إسماعيل بن نجيد يقول : سمعتُ أبا عثمان سعيد بن عثمان الحيرى يقول : من أمّر السُّنة على نفسه قولاً ، وفعلاً ، نطق بالحكمة ؛ ومن أمّر الهوى على نفسه قولا ، وفعلاً ، نطق بالبدعة ؛ قال الله تعالى : « وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا »(٢) .

وسمعت طيفور البسطامى يقول : « سمعت موسى بن عيسى المعروف بعُمَىّ يقول سمعت أبا يزيد البسطامى رحمه الله ، يقول : قم بنا حتى ننظر إلى هـذا الرجل الذى قد شهر نفسه بالولاية ، وكان الرجل فى ناحيته مقصوداً ، مشهوراً بالزهد والعبادة ، وقد سماه لنا طيفور ونسبته قال : فمضينا ، قال : فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببزاقه تجاه القبلة ، فقال أبو يزيد : قم بنا نتصرف ، قال : فانصرف

---

(١) يسرنا هنا أن ندعو أعداء التصوف أو الدين يتهمونه بأنه خارج على الدين إلى قراءة هذا الفصل وهو حاسم فى صلة التصوف بالدين وآراء أئمة التصوف التى ذكرها المؤلف صريحة لا لبس فيها : التصوف مستمد من الكتاب والسنة قائم عليهما مهتد بهما متخذهما القائد والقدوة

(٢) النور : ٥٤

ملحوظة : ما بين الأقواس المضلعة موجود بهامش إحدى النسخ

ولم يسلم عليه ، وقال : هذا رجل ليس بمأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه من مقامات الأولياء والصديقين ؟!

وسمعت طيفور يقول : سمعت موسى بن عيسى يقول : سمعت أبى يقول : سمعت أبا يزيد ، رحمه الله ، يقول : لقد هممت أن أسأل الله تعالى أن يكفينى مؤنة الأكل ، ومؤنة النساء ؛ ثم قلت : كيف يجوز لى أن أسأل الله عز وجل هذا ،ولم يسأله رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ ! فلم أسأله ، وكفانى الله تعالى مؤونة النساء حتى لا أبالى استقبلتنى امرأة أو حائط ، أو كما قال .

وسمعت أبا الطيب أحمد بن مقاتل العكى البغدادى يقول : كنت عند جعفر الخلدى ، رحمه الله [يوم مات الشبلى] فدخل عليه بندار الدينورى ، وكان خادم الشبلى ، رحمه الله ، وكان قد حضر موته ، فسأله جعفر : أيش رأيت منه فى وقت موته؟ فقال : لما أمسك لسانه وعرق جبينه أشار إلى: وضئنى للصلاة، فوضئته، فنسيت تخليل لحيته ، فقبض على يدى وأدخل أصابعى فى لحيته يخللها ! قال : فبكى جعفر ، وقال : أيش يتهيأ أن يقال فى رجل لم يذهب عليه تخليل لحيته فى الوضوء ، عند نزع روحه ، و إمساك لسانه ، وعرق جبينه ؟ ! ! أو كما قال :

وسمعت أحمد بن على الوجيهى يقول : سمعت أبا على الروذبارى يقول : كان أستاذى فى علم التصوف: الجنيد ، وكان أستاذى فى الفقه: أبو العباس بن سريج ، وكان أستاذى فى النحو واللغة : ثعلب ، وكان أستاذى فى حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام : إبرهيم الحربى .

وسئل ذو النون ، رحمه الله : بما ذا عرفت الله تعالى ؟ فقال عرفت الله بالله ، وعرفت ما سوى الله برسول الله عليه الصلاة والسلام .

وقال سهل بن عبد الله ، رحمه الله : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فباطل .

وقال أبو سليمان الدارانى ، رحمه الله : ربما تنكت الحقيقة قلبى أربعين يوماً فلا آذن لها أن تدخل قلبى إلا بشاهدين من الكتاب والسنة .

فهذا ما حضرنى فى الوقت مما ذهب إليه الصوفية فى اتباعهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وكرهت التثقيل ؛ واقتصرت على ما ذكرت للتخفيف ، وبالله التوفيق .

كتاب المستنبطات

باب مذهب أهل الصفوة فى المستنبطات الصحيحة فى فهم القرآن والحديث ، وغير ذلك ، وشرحها

قال الشيخ ، رحمه الله : [إذا] قالوا : ما معنى المستنبطات فيقال :

المستنبطات : ما استنبط أهل الفهم من المتحققين بالموافقة لكتاب الله ، عز وجل : ظاهراً وباطناً ، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهراً وباطناً ، والعمل بها بظواهرهم وبواطنهم .

فلما [عملوا بما] علموا من ذلك ورثهم الله تعالى : علم ما لم يعلموه وهو علم الإشارة ، وعلم مواريث الأعمال التى يكشف الله تعالى ، لقلوب أصفيائه من المعانى المذخورة ، واللطائف والأسرار المخزونة ، وغرائب العلوم وطرائف الحكم فى معانى القرآن ومعانى أخبار رسول الله عليه الصلاة والسلام من حيث أحوالهم ، وأوقاتهم ، وصفاء أذكارهم .

وقال الله تعالى : « أفلاَ يتدَبرونَ القرْآنَ أمْ علىَ قلوبٍ أقفالهَا ؟ »[1] .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « من عمل بما علم ورثه الله تعالى ، علم ما لم يعلم »

وهو العلم الذى ليس لغيرهم ذلك من أهل العلم .

وأقفال القلوب ما يقع على القلوب من الصدأ ، لكثرة الذنوب ، واتباع الهوى ،

---

(١) محمد : ٤٢

ومحبة الدنيا ، وطول الغفلة ، وشدة الحرص ، وحبّ الراحة ، وحبّ الثناء والمحمدة ؛ وغير ذلك من الغفلال والزلات ، والمخالفة والخيانات .

فإذا كشف الله تعالى : [ذلك عن] القلوب بصدق التوبة والندم على الحوبة ، فقد فتح الأقفال عن القلوب وأتته الزوائد والفوائد من الغيوب ، فيعبر عن زوائده وفوائده بترجمانه ، وهو اللسان الذى ينطق بغرائب الحكم ، وغرائب العلم .

فإذا شرحوا هذه التقط المريدون والقاصدون والطالبون من تلك الجواهر بآذان واعية ، وقلوب حاضرة ، فعاشوا وانتفعوا بذلك ، وأنعشوا .

وقد قال الله ، عز وجل : « أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا »[1] .

فدل على أن بتدبرهم فى القرآن يستنبطون ؛ إذ لو كان القرآن من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

ثم قال : « وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ »[2] يعنى من أهل العلم وقالوا : أولوا الأمر هاهنا أهل العلم .

فقد بين ها هنا خصوصية لأهل العلم ، وخصوصية لأهل الاستنباط من أهل العلم .

وقد روى فى الخبر : « أن رجلا جاء إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال : يارسول ، الله علمنى من غرائب العلم ، فقال : وما عملت فى أول العلم ؟ أحكم أول العلم ثم تعال حتى أعلمك غرائب العلم » أو كما قال .

---

(١) النساء : ٨٢ (٢) النساء : ٨٣

ولفقهاء الأمصار وعلمائها فى كل وقت مستنبطات، مشهورة فى آيات القرآن والأخبار الظاهرة مستمدة للاحتجاج بهـا بعضهم على بعض فى المسائل الخلافية بينهم .

وقد قال بعضهم : إن فى هذا الحديث الذى قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الأعمال بالنيات ، ولـكل أمرىء ما نوى ؛ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله » على ما جاء فى الحديث : إنه يدخل فى ثلاثين باباً من أبواب العلم .

وهذا لا يكون إلا من طريق الاستنباط .

وكذلك أهل الـكلام والنظر : احتجاجاتهم العقلية كلها مستنبطات، وكل ذلك حسن عند أهله، ومقبول ؛ إذ المقصود من ذلك النصرة للحق والرد للباطل .

وأحسن من ذلك مستنبطات أهل العلم بالعلم والتحقيق والإخلاص فى العمل من المجاهدات ، والرياضات، والمعاملات ؛ والمتقربين إلى الله تعالى : بأنواع الطاعات، وأهل الحقائق .

باب فى كيفية الاختلاف

فى مستنبطات أهل الحقيقة فى معانى علومهم وأحوالهم

قال الشيخ ، رحمه الله : اعلم ، أيدك الله بالفهم ، وأزال عنك الوهم ، أن أبناء الأحوال ، وأرباب القلوب ، أن لهم أيضاً ، مستنبطات فى معانى أحوالهم ، وعلومهم وحقائقهم ؛ وقد استنبطوا من ظاهر القرآن ، وظاهر الأخبار معان لطيفة باطنة ، وحكما مستطرفة ، وأسراراً مذخورة .

ونحن نذكر طرفاً من ذلك إن شاء الله تعالى .

وهم أيضاً فى مستنبطاتهم مختلفون ، كاختلاف أهل الظاهر ، غير أن اختلاف أهل الظاهر يؤدى إلى (حكم) الغلط والخطأ ، والاختلاف فى علم الباطن لا يؤدى إلى ذلك لأنها فضائل ، ومحاسن ، ومكارم ، وأحوال ، وأخلاق ، ومقامات ، ودرجات .

وقيل : إن اختلاف العلماء فى علم الظاهر رحمة من الله تعالى ، لأن المصيب يرد على المخطىء ، ويبين للناس غلط المخالف ، وخلافه المصيب فى الدين حتى يجنبوا منه ، ولولا ذلك لهلك الناس بذهاب دينهم .

وأما الاختلاف بين أهل الحقائق أيضاً رحمة (من) الله ، لأن كل واحد يتكلم من حيث وقته ، ويجيب من حيث حاله ، ويشير من حيث وجده : فتكون فيهم لكل واحد من أهل الطاعات ، وأرباب القلوب ، والمريدين ، والمتحققين ، فائدة من كلامهم .